

التاريخ الفكري النشأة والموضوع والمنهج ووضعه في الدراسات التاريخية العربية الحديثة

Intellectual History

Origin, Subject, Methodology and Its Status in Modern Arab Historical Studies

تهدف هذه الدراسة إلى أمرين، أولهما استعراض نشأة مجال التاريخ الفكري وتطوره في الدراسات التاريخية الغربية المعاصرة للتعرف إلى علاقة هذا المجال بأغراض التاريخ الأخرى، وعلاقته بما سبقه من مناهج في دراسة التاريخ، وثانيهما التعرف إلى أهم القضايا النظرية المرتبطة بالتاريخ الفكري. وتتناول الدراسة العديد من الأسئلة المرتبطة بالتاريخ الفكري، مثل تعريفاته ومناهج دراسته المختلفة وإشكالياته الكبرى، علاوة على نقاط تفرده عن مجالات التاريخ الأخرى. وسيتعرف القارئ إلى أهم المؤرخين المرتبطين بالتاريخ الفكري في العقود الأخيرة، فضلاً عن الاختلافات بينهم فيما يخص هذا الموضوع ومنهجه. كما تعرّج الدراسة، على نحو مختصر، على حالة الدراسات التاريخية العربية الحديثة المرتبطة بالتاريخ الفكري، فضلاً عن بعض الصعوبات التي تواجه المهتم بدراسة تاريخ الإسلام الفكري تحديداً، مقترحة مجموعة من الحلول الممكنة للتعامل معها على مستويات مختلفة.

كلمات مفتاحية: التاريخ الفكري، المناهج التاريخية، تاريخ الأفكار، تاريخ الإسلام الفكري.

The aim of this paper is twofold: to present the rise and development of intellectual history as a distinct field of historical enquiry in modern Western historiography and to discuss some of its main theoretical and methodological issues. The paper provides an overview of intellectual history, including some of the views of its pioneers. The paper also briefly discusses the current state of intellectual history in the Arab region and the difficulties that the scholars working on the intellectual history of Islam in particular face, suggesting steps to improve its status as an academic discipline.

Keywords: Intellectual History, Historical Research Methods, History of Ideas, Islamic Intellectual History.

* أستاذ مشارك في قسم العلوم الإنسانية، كلية الآداب والعلوم، جامعة قطر.
Associate Professor, Department of Humanities, College of Arts and Sciences, Qatar University.

مقدمة

في الدراسات العربية الحديثة عن تطور علم التاريخ، تبدو مدرسة الحوليات كأنها المحطة الأخيرة الأهم في تطور الدراسات والمناهج التاريخية، وذلك على اعتبار أن ما أتى بعدها من نظريات ومقاربات تاريخية كان استجابة لها أو ردة فعل عليها تشبه، على نحو ما، دراسات الـ "ما بعد"، مثل دراسات ما بعد الحداثة أو ما بعد البنيوية، وما إلى ذلك.

تتناول هذه الدراسة غرضًا من أغراض الكتابة التاريخية، بدأ تقريبًا في الوقت نفسه الذي ظهرت فيه مدرسة الحوليات، ولكن في الولايات المتحدة. وأقصد هنا "التاريخ الفكري" Intellectual History الذي لم يحظَ بالزخم الذي حظيت به مدارس التاريخ الأخرى، بل تأرجحت مكانته كثيرًا في العقود القليلة الماضية، على الرغم من انتماء كثير من كبار المؤرخين المعاصرين إليه. تستعرض هذه الدراسة ظهور هذا النوع من أنواع الدراسات التاريخية في النصف الأول من القرن العشرين، وارتباطه بفكرة "تاريخ الأفكار" History of ideas عند المؤرخ الأميركي آرثر لفُجوي Arthur Lovejoy (1873-1962)، وعلاقته بتاريخ الذهنيات الفرنسي L'histoire des mentalités، وتاريخ الأفكار الألماني بتنوعاته المختلفة Ideengeschichte, Begriffsgeschichte, Geistesgeschichte، ومن ثم الجدل الحاصل والمستمر حول موضوعه وحدوده وأهدافه. ويستتبع هذا الهدف هدف آخر، ألا وهو تحديد التساؤلات النظرية المرتبطة بالتاريخ الفكري وتقديمها إلى المهتم بالموضوع من المؤرخين العرب، إذ إنه على الرغم من وجود دراسات عربية حديثة ومعاصرة تنتمي بوضوح إلى مجال التاريخ الفكري من جهة الممارسة، فإننا نفتقد دراسات تؤصل للأسس النظرية لهذا المجال عمومًا، ما يعوق ازدهاره بوصفه غرضًا من أغراض الدراسة التاريخية في العالم العربي خصوصًا.

تتضمن هذه الدراسة أربعة محاور؛ يتناول المحور الأول نشأة التاريخ الفكري ومجالاته واهتماماته وأهدافه، في حين يستعرض المحور الثاني أهم الإشكاليات الموضوعية والمنهجية المرتبطة به، أما المحور الثالث فيناقش الآراء المختلفة حول إطار التاريخ الفكري وتفردّه عن فروع التاريخ الأخرى وارتباطه بها. وأخيرًا، يتناول المحور الرابع بإيجاز حالة التاريخ الفكري في الدراسات التاريخية العربية الحديثة والمعاصرة، وبعض الصعوبات المرتبطة بدراسة تاريخ الإسلام الفكري تحديدًا، مقترحًا مجموعة من الحلول لدعم مكانة التاريخ الفكري في العالم العربي.

أولاً: التاريخ الفكري: النشأة والتطور

انقسم المؤرخون الغربيون في البحث عن نشأة التاريخ الفكري إلى فريقين. زعم فريق أن التاريخ الفكري، بمفهومه العام، كان موجودًا دائمًا، لا سيما عند الفلاسفة الذين اهتموا ببيان مواقفهم من الفلاسفة السابقين عليهم⁽¹⁾. وهذا الرأي، كما هو واضح، يتجاهل قضايا المنهج وما يرتبط بها من أمور نستعرضها في هذه الدراسة مع استعراض تطور التاريخ الفكري. أما الفريق الثاني، فينظر إلى التاريخ الفكري بوصفه غرضًا حديثًا من أغراض دراسة التاريخ. وفي داخل هذا الفريق، نجد من يربطون بين التاريخ الفكري وبعض أغراض التاريخ التي ظهرت في ألمانيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أو في فرنسا في النصف الأول من القرن العشرين، ومن يصرّون على أن التاريخ الفكري بمفهومه المعاصر نشأ في الولايات المتحدة في ثلاثينيات القرن العشرين وتطورت مناهجه فيها في المقام الأول⁽²⁾. سترهن الصفحات التالية على أن رأي الفريق الأول فضفاض بدرجة لا تمكنه بالفعل من تمييز الجديد والمختلف في التاريخ

1 Hayden V. White, "The Tasks of Intellectual History," *The Monist*, vol. 53, no. 4 (October 1969), p. 606.

2 وفي كلتا الحالتين، فهو قد يرتبط بـ "سردية العلمانية" كما يناقشها عزمي بشارة في معرض حديثه عن ارتباط ظهور التاريخ الحديث بالعلمانية تحديدًا، وإن اختلفت أشكالها وأهدافها في العالم العربي. ينظر: عزمي بشارة، *الدين والعلمانية في سياق تاريخي، الجزء الثاني، المجلد الثاني: العلمانية ونظريات العلمنة (الدوحة) بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2015*، ص 30-38.

الفكري الحديث. كما أن من يصرون على تتبع نشأة التاريخ الفكري في ألمانيا أو فرنسا يخلطون بينه وبين التاريخ الثقافي أو تاريخ العقلية L'histoire des mentalités الأتسبه به⁽³⁾، وهو خلط قد يكون مقصوداً ومبرراً لديهم، ولكنه خلط يرى بعض كبار المؤرخين المهتمين بالتاريخ الفكري أنه يهدف، في نهاية المطاف، إلى تهميش التاريخ الفكري كما يفهمه هؤلاء.

أخذ من هذا الرأي الأخير نقطة انطلاق لعرض الأفكار المختلفة حول نشأة التاريخ الفكري وتطوره، مع عرض وجهات النظر المختلفة حول موضوعه ومنهجه في إطار ذلك. يصر هذا الرأي على ريادة الولايات المتحدة في مجال التاريخ الفكري، إذ إنه على الرغم من وجود بعض التشابه بين تطور التاريخ الفكري في الولايات المتحدة وبعض التوجهات التاريخية في ألمانيا وفرنسا، على سبيل المثال، فإنها لم تميز حدود تفرد بوصفه غرضاً تاريخياً مستقلاً عن غيره⁽⁴⁾، كما لم يكن لها ذلك التأثير العميق والممتد الذي كان المؤرخي الولايات المتحدة في القرن العشرين⁽⁵⁾. وفي نظر هؤلاء، فإن نصيب أوروبا في تطور التاريخ الفكري كان إسهاماً غير مباشر، إذ أعلى الفلاسفة الألمان من دور الأفكار في الصيرورة التاريخية (بل جعلها فريدريش هيغل أساس هذه الصيرورة)، كما قدمت مدرسة الحوليات الفرنسية أفكاراً استفاد منها التاريخ الفكري معرفياً ومنهجياً⁽⁶⁾. وسيتوقف البحث عند تأثير المفكرين الأوروبيين (لا سيما فلاسفة اللغة والنقد الأدبي الألمان والفرنسيون) في التاريخ الفكري في مرحلة تطوره التي أطلق عليها "المنعطف اللغوي"⁽⁷⁾.

1. أثر لفجوي: التاريخ الفكري في مقابل تاريخ الأفكار

ينسب مصطلح "التاريخ الفكري" إلى المؤرخ الأميركي جيمس هارفي روبنسون James Harvey Robinson (1863-1936) في بدايات القرن العشرين⁽⁸⁾. وبعدها بقليل، أتى المؤرخ آرثر لفجوي بفكرة كان لها دور كبير في تطور التاريخ الفكري⁽⁹⁾. تقوم فكرة لفجوي على وجود "وحدات فكرية" Unit Ideas رئيسية ودائمة في كل الحضارات، وإن اختلفت معانيها الدقيقة وتجلياتها بحسب الطريقة التي وُظفت بها في سياقات تاريخية مختلفة⁽¹⁰⁾. أطلق لفجوي على تمييز هذه الوحدات ودراستها "تاريخ الأفكار" History of ideas، وهو العنوان الذي حملته الدوريات التي

3 وعن تاريخ العقلية و"ضابيته" وعلاقته بالتاريخ الفكري، ينظر ترجمة محمد حبيدة لمادة المؤرخ الفرنسي جاك روفل Jacques Revel عن "العقلية"، في: *الكتابة التاريخية: التاريخ والعلوم الاجتماعية - التاريخ والذاكرة - تاريخ العقلية*، ترجمة وتقديم محمد حبيدة (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2015)، ص 129-140؛ وكذلك ترجمته لمقالة المؤرخ الفرنسي جاك لوغوف Jacques Le Goff: "العقلية: تاريخ مبهم"، في: المرجع نفسه، ص 141-162.

4 Donald R. Kelley, "Horizons of Intellectual History: Retrospect, Circumspect, Prospect," *Journal of the History of Ideas*, vol. 48, no. 1 (January-March 1987), p. 150.

5 Ibid., pp. 149-150.

6 بل يعتبر المؤرخ الأميركي ليونارد كريغر - أحد أعلام التاريخ الفكري حتى وفاته عام 1990 - مدرسة الحوليات إحدى خمس من "مدارس" التاريخ الفكري، ينظر: Leonard Krieger, "The Autonomy of Intellectual History," *Journal of the History of Ideas*, vol. 34, no. 4 (October-December 1973), pp. 504-505; Eric Miller, "Intellectual History after the Earthquakes: A Study in Discourse," *The History Teacher*, vol. 30, no. 3 (May 1997), p. 365. وينسب ميلر إلى المؤرخة الأميركية لين هانت Lynn Hunt (1945-) اعتقادها بتأثر المؤرخين الأميركيين بمدرسة الحوليات، ولا سيما مع تركيز هذه المدرسة على "تاريخ الذهنيات" وإبتعادها عن التفسيرات الاجتماعية - الاقتصادية الصارمة.

7 أو "المنعرج اللساني" كما في بعض الأدبيات. وعن المنعطف اللغوي، ينظر: Judith Surkis, "When was the Linguistic Turn? A Genealogy," *The American Historical Review*, vol. 117, no. 3 (June 2012), pp. 700-722;

وعن علاقة المنعطف اللغوي بالتاريخ الفكري، ينظر:

Martin Jay, "Should Intellectual History take a Linguistic turn? Reflections on the Habermas-Gadamer Debate," in: Dominick LaCapra & Steven L. Caplan (eds.), *Modern European Intellectual History: Reappraisals and New Perspectives* (Ithaca/ London: Cornell University Press, 1982); John E. Toews, "Intellectual History after the Linguistic Turn," *The American Historical Review*, vol. 92, no. 4 (1987), pp. 879-907.

8 Felix Gilbert, "Intellectual History: Its Aims and Methods," *Daedalus*, vol. 100, no. 1 (Winter 1971), p. 80.

9 عن لفجوي وأفكاره، ينظر:

John Herman Randall, "A Symposium in Honor of Arthur O. Lovejoy: Arthur O. Lovejoy and the History of Ideas," *Philosophy and Phenomenological Research*, vol. 23, no. 4 (June 1963), pp. 475-479.

10 Gilbert, p. 89.

أشرف على تحريرها *Journal of the History of Ideas*. كما وضع لفجوي فكرته موضع التطبيق في كتابه الأشهر **سلسلة الوجود العظيمة** *The Great Chain of Being*. وعلى الرغم من النقد العنيف الذي تعرضت له فكرة لفجوي، بل تجاوز التاريخ الفكري بالكلية تقريباً لفكرة "الوحدات الفكرية" (بما في ذلك دورية لفجوي نفسها)، فإن التاريخ الفكري تطور بصورة عامة بعد لفجوي من خلال تحديد الموقف من هذه الفكرة وأفكاره الأخرى⁽¹¹⁾. كما اضطلعت أفكار لفجوي بدور مهم في جعل الولايات المتحدة سباقة في مجال التاريخ الفكري، إلى درجة أن الطفرة التي شهدتها التاريخ الفكري في الولايات المتحدة في الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين دفعت البعض إلى إعلانه "ملك الدراسات التاريخية"⁽¹²⁾.

وعلى الرغم من اعتقاد بعض المؤرخين أنه لا يوجد فرق جوهري بين فكرة لفجوي عن تاريخ الأفكار والتاريخ الفكري كما يمارس بصفة عامة الآن⁽¹³⁾، فإن أغلب المشتغلين بالتاريخ الفكري نأوا بأنفسهم عن فكرته "الأفلاطونية" عن "الوحدات الفكرية"، إذ تفترض هذه الفكرة إمكانية وجود الأفكار بمعزل عن العالم أو بصورة مفارقة له⁽¹⁴⁾. بيد أن هذه الفكرة لم تكن لتتجح في ظل سيطرة فكرة مركزية السياق - أيًا كان تعريفه - في فهم المؤرخ لأفكار مفكر ما، فضلاً عن تشكيلها في عقل صاحبها نفسه. ونتج من هذا الأمر ذبول مصطلح "تاريخ الأفكار" (بل ربما اختفاؤه تماماً باستثناء وجوده في دورية لفجوي)، ليحل محله مصطلح "التاريخ الفكري"، الذي ميز نفسه من تاريخ الأفكار من خلال تركيزه على السياق **الخارجي** الذي تظهر فيه تلك الأفكار، بينما يركز تاريخ الأفكار على سياقها **الداخلي**، كما سنفصل ذلك لاحقاً⁽¹⁵⁾. قد تكون هذه النقطة مرتبطة بتطور آخر شهدته الدراسات التاريخية في النصف الأول من القرن العشرين، إذ إنه مع اتهام التاريخ السياسي - الذي هيمن على القرن التاسع عشر، ولا سيما نصفه الثاني⁽¹⁶⁾ - بضيق الأفق بسبب إهماله لأبعاد التجربة الإنسانية الأخرى، أُنجح بعض المؤرخين إلى الجمع بين ما نطلق عليه اليوم التاريخ الاجتماعي والتاريخ الفكري. كان لهذا التطور تأثير إيجابي في نظر بعض المتابعين لتطور

11 عن مكانة لفجوي وأثره في تطور التاريخ الفكري، ينظر:

John Patrick Diggins, "Arthur O. Lovejoy and the Challenge of Intellectual History," *Journal of the History of Ideas*, vol. 67, no. 1 (January 2006), pp. 181-208.

12 Jan-Werner Müller, "European Intellectual History as Contemporary History," *Journal of Contemporary History*, vol. 46, no. 3 (July 2011), p. 580. وجب التنويه إلى أن الكلمة المستخدمة في هذه العبارة المقتبسة هي "ملكة" وليست "ملك" التي فضلتها في الترجمة العربية.

13 ينظر، على سبيل المثال، ما يقوله المؤرخ النيوزيلندي جون بوكوك J.G.A. Pocock (1924-) في: Stefan Collini, "What is Intellectual History?" *History Today*, vol. 85, no. 10 (October 1985), pp. 46-54.

وكما نرى في عنوان هذه المقالة المنشورة في منتصف ثمانينيات القرن العشرين التي تضم إجابات ستة مؤرخين، فضلاً عن كولينبي نفسه، عن سؤال "ما هو التاريخ الفكري؟"، فقد كان السؤال عن طبيعة التاريخ الفكري وهدفه ما زال مطروحاً؛ ينظر أيضاً عنوان المقالة المشار إليها في الهامش التالي.

14 Peter E. Gordon, "What is Intellectual History? A Frankly Partisan Introduction to a Frequently Misunderstood Field," *The Harvard Colloquium for Intellectual History*, Harvard University, Summer 2013, pp. 1-2.

استخدم الباحث هذه المقالة بعد موافقة البروفيسور غوردون في مراسلة شخصية معه. ويدافع كيلي عن لفجوي قائلاً إن من جاؤوا بعده اتسموا بنظرة ضيقة وأقل مغامرة من نظرتهم، ينظر: Kelley, p. 151؛ وفي رأي كريغر، فإن التاريخ الفكري يختلف في أمور عن تاريخ الأفكار، إذ بينما يركز هذا الأخير على أفكار كبار المفكرين الناضجة، فإن التاريخ الفكري هو أعم وأشمل منه، ذلك أنه يتناول حتى الأفكار والأراء البسيطة والافتراضات المضمرة، ينظر: 501-Krieger, pp. 500؛ وعن الفكرة نفسها، ينظر أيضاً رأي المؤرخ الإنكليزي مايكل هانتر Michael Hunter في: Collini, p. 54؛ وعلى الرغم من ذلك، يبنه هانتر إلى أن التركيز على نصوص وأفكار كبار المفكرين يرتبط أساساً بتوفر كتاباتهم، على خلاف الأفكار البسيطة التي لا تجد دائماً طريقها إلى المصادر التاريخية، ينظر: Ibid.

15 Gordon, p. 5.

16 وكما يوضح خالد طحطح، ارتبط الاهتمام بالتاريخ السياسي في القرن التاسع عشر بالدراسة الوضعية التي أولته اهتماماً خاصاً، مركزة على الأفراد بوصفهم صناعاً للتاريخ، وعلى الأحداث التاريخية نفسها من حيث أسبابها ومراحلها ونتائجها، ينظر: خالد طحطح، **عودة الحدث التاريخي** (الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 2014)، ص 13-19؛ وقد كان للتاريخ السياسي حضور قوي في ألمانيا على يد المؤرخ الألماني المرموق ليوبولد فون رانكه Leopold von Ranke (1795-1886)، ومن قبله الفيلسوف الألماني هريردر Herder (1744-1803)، إذ اعتبر - مخالفاً أتباع التاريخ الاجتماعي - التاريخ السياسي هو التاريخ الحقيقي، بل هو "التاريخ"، ينظر: Gordon, p. 5؛ وقد انزوى التاريخ السياسي في النصف الأول من القرن العشرين مع ظهور مدرسة الحوالبات واهتمامها بالبنى الاقتصادية والاجتماعية والديموغرافية، ينظر: طحطح، ص 19 وما بعدها؛ ثم تجدد الاهتمام به في النصف الثاني من القرن العشرين مع توسع نطاق "السياسي" ومجالاته، وعودة الاهتمام بالحدث التاريخي، وربما تراجع التيار الماركسي، ينظر: فتحي ليسير، **تاريخ الزمن الراهن: عندما يطرق المؤرخ باب الحاضر** (تونس: دار محمد علي للنشر، 2012)، ص 88-90؛ وعن ارتباط ما يطلق عليه الألمان *Geistgeschichte* (ينظر الهامش رقم 21)؛ وهو ما يعتبره البعض النظير الألماني للتاريخ الفكري - بالتاريخ السياسي كما أرخ له المؤرخون الألمان مثل فلهالم دلتاي Wilhelm Dilthey (1833-1911) ومن بعده فريدريش ماينكه Friedrich Meinecke (1862-1954)، ينظر: Müller, p. 577.

الدراسات التاريخية في الغرب في القرن العشرين، إذ إنه ساعد المهتمين بالتاريخ الفكري على صقل مناهجهم من خلال الاستفادة من التطورات التي حدثت في العلوم الاجتماعية⁽¹⁷⁾. وكان أحد تلك التأثيرات هو فكرة التغيير؛ فتماماً كما أن المجتمعات تتغير باستمرار، فإن عقل المفكر يشهد تغييراً مستمراً لأسباب قد يكون أوضحها كونه في جدل دائم (وإن لم يكن معلناً بالضرورة) مع أفكار عصره⁽¹⁸⁾.

2. الولايات المتحدة الأميركية والتاريخ الفكري

ومع هذه الطفرة التي شهدتها التاريخ الفكري في منتصف القرن العشرين، فإنه وصولاً إلى سبعينيات ذلك القرن لم يكن قد أصبح - بعد - فرعاً معترفاً به في الدراسات التاريخية، على الأقل خارج الولايات المتحدة. ففي فرنسا، لم يستخدم المؤرخون الفرنسيون النظر الفرنسي اللغوي له *Histoire intellectuelle* الذي لا يظهر إلا في ثمانينيات القرن العشرين⁽¹⁹⁾. وفي بريطانيا، لم يُخصص للتاريخ الفكري فصل في *موسوعة كامبردج الجديدة للتاريخ الحديث* *New Cambridge Modern History*⁽²⁰⁾. كما لم يكن هناك مقابلات للمصطلح في فرنسا أو حتى ألمانيا، إذ إنه على الرغم من وجود مصطلحات قد تشير إلى أغراض تتقاطع معه، فإنها لم تحظ بالزخم الذي اكتسبه مصطلح التاريخ الفكري كما تطور في الولايات المتحدة⁽²¹⁾. أما في الولايات المتحدة، معقل التاريخ الفكري، فقد شعر المشتغلون به بوجود تهديد لشرعية وجوده

17 Gilbert, p. 90.

يضيف غيلبرت أن التاريخ الفكري والتاريخ الاجتماعي خاضا معاً صراعاً من أجل الاعتراف بهما، بيد أن علاقتهما تحولت من التحالف إلى العداء لأسباب عدة، قد يكون أهمها هو اختلاف الافتراضات التي يقوم عليها كل منهما. فبينما يسعى التاريخ الاجتماعي للكشف عن الحركات الاجتماعية التي لا يُعرف عادة المحفز الرئيس لها (فقد يكون تغيرات سكانية أو نموًا اقتصاديًا أو تقدمًا تكنولوجيًا)، يركز مؤرخ التاريخ الفكري على عقل المفكر وثماره. ثم يضيف غيلبرت أن الافتراضات التي يقوم عليها التاريخ الاجتماعي قد أفضت ببعض ممارسيه إلى زعم مفاده أن التاريخ الاجتماعي هو التاريخ "الحقيقي" الذي يمكن دراسته والاستفادة منه، إذ إنه يقوم على "قوانين" يمكن الكشف عنها واستخدامها للتنبؤ بالمستقبل، ينظر: 93-Ibid., pp. 94.

18 Ibid., pp. 90-91.

يضرب غيلبرت مثالاً على ذلك من خلال كتابي دلتاي عن فريدريش شلايرماخر وهيغل "الصغير" *Die Jugendgeschichte Hegels*، ويعتبرهما أولى المؤلفات التي تناولت فكر المؤلف بوصفه نتاج عملية تطويرية. ويضيف غيلبرت أنه مع هذا التوجه الجديد، بدأ الاهتمام بمجموعة معينة من الوثائق التي لم تنل حظاً من الاهتمام من قبل، مثل النسخ الأولى من مخطوطات الكتب وقصاصات الورق والهوامش والمراسلات الشخصية وملخصات المحاضرات، وهي كلها وثائق تلقي الضوء على تطور أفكار مفكر ما. وقد نشأ، ربما بدافع من فكرة التطور، اهتمام تاريخي أطلق عليه "التاريخ النفسي" *Psychohistory* يسعى للبحث عن الدوافع "الحقيقية" للأفكار والسلوك. وقد اعتبر دلتاي أيضاً، بل الفرنسي لوسيان فيبر *Lucien Febre* (1878-1956) أيضاً، صاحب الدور الأكبر في ظهوره، ينظر: Krieger, pp. 510-511; Thomas A. Kohut, "Psychohistory as History," *The American History Review*, vol. 91, no. 2 (April 1986), p. 344.

ودراسة كوهوت مفيدة في إعطاء فكرة عامة عن تطور التاريخ النفسي وإشكالياته. وقد حذر المؤرخ الأميركي وأستاذ التاريخ بجامعة واشنطن سانت لويس، جيرالد أيزنبرت، مبكراً من الاستخدام العشوائي لأفكار التاريخ النفسي، إذ إنه قد يقود بسهولة إلى عملية "دور" *Circularity*، واضحة حين يستخدم المؤرخ ما يعرفه عن المفكرين من كتاباتهم اللاحقة ليستنتج أمورا عن طفولتهم، ومن ثم يعيد استخدام هذه الأمور لتفسير أفكار هؤلاء المؤرخين اللاحقة، ينظر: Gerald Izenbert, "Psychohistory and Intellectual History," *History and Theory*, vol. 14, no. 2 (May 1975), p. 139; Kelley, p. 164.

إذ يصرح كيبي بأن "التاريخ النفسي" لم يحظ بالفعل بقدر يذكر من الاحترام لدى المؤرخين بصفة عامة، والمهتمين منهم بالتاريخ الفكري بصفة خاصة؛ وعن تأثير دلتاي، بل الفرنسي لوسيان فيبر أيضاً، في ظهور فكرة التاريخ النفسي، ينظر:

Krieger, pp. 510-511; Kohut, p. 344.

19 ينظر، على سبيل المثال، مادة المؤرخ الفرنسي المعاصر فرانسوا دوس (1950-)، الذي قد يُعد أحد أهم أعلام التاريخ الفكري في فرنسا، عن التاريخ الفكري وتطوره في فرنسا من اهتمامات فكرية متعددة:

François Dosse, "Histoire intellectuelle," in: Christian Delacroix et al., *Historiographies: Concepts et débats*, vol. I (Paris: Gallimard, 2010), pp. 378-390.

20 بل لم تظهر كلمة "التاريخ الفكري" أصلاً في قاموس أكسفورد للغة الإنكليزية، ينظر في ذلك: 80-Gilbert, pp. 81.

21 يستخدم الألمان مصطلحات أخرى، مثل *Geistgeschichte* الذي يتركب من جزأين، *Giest* بمعنى الروح و *Geschichte* بمعنى تاريخ (وهو مصطلح يصعب ترجمته، وإن عدّه كثيرون وثيق الصلة بتاريخ الأفكار أو التاريخ الفكري)، و *Begriffsgeschichte*، ويعني مقطعه الأول الفكرة أو التصور أو المفهوم (والمقطع الثاني بمعنى "التاريخ" كما هو الحال مع المصطلح الأول)، و *Ideengeschichte*، أي تاريخ الأفكار. ويؤكد كيبي هنا أنه بينما ارتبط النظر الألماني لتاريخ الأفكار بالفلسفة تحديداً، فقد ارتبط النظر الفرنسي، أي تاريخ الذهنيات أو العقليات و *L'histoire des mentalités*، بالتاريخ الاجتماعي، ينظر: 3-Kelley, pp. 149-150, fn.

ومن جهته، يرى وايت أن التاريخ الثقافي *Kulturgeschichte*، الذي ظهر في منتصف القرن التاسع عشر وكان على رأس أعلامه المؤرخ السويسري ياكوب بوكهارت *Jacob Burchhardt* (1818-1897)، هو "سلف" إلتاريخ الفكري المباشر، ينظر: 611-White, pp. 612.

واتساقاً مع هذا، يرى وايت أن الأعلام الأول للتاريخ الفكري هم الفيلسوف الألماني إرنست كاسيرير *Ernst Cassirer* (1874-1945) والهولندي يوهان هينزنا *Johann Huizinga* (1872-1945)، ثم الأميركي آرثر ليجوي، ينظر: 613-Ibid., p.

نفسها⁽²²⁾، ما استدعى عقد "مؤتمر أزمة" في بداية العقد قبل الأخير من القرن العشرين، للبحث في أسباب تلك الأزمة وأبعادها وبعض سبل التعامل معها⁽²³⁾. تمثل أحد أهم أبعاد هذه الأزمة في عدم وجود جيل جديد من المؤرخين المتخصصين في التاريخ الفكري، بل دخوله في مسار تنازلي بعد أن كان في صعود، إلى درجة إعلان أحد المؤرخين الأميركيين أن التاريخ الفكري يعيش أيامه الأخيرة⁽²⁴⁾.

3. المنعطف اللغوي والتاريخ الفكري: جدل الثقافة والسياق والإبستيمولوجيا

في الوقت نفسه تقريباً، أي في ستينيات القرن العشرين وسبعينياته، حدث ما أطلق عليه "المنعطف اللغوي" The Linguistic Turn، الذي أدى دوراً كبيراً في انتعاش التاريخ الفكري، إذ كان ممارسوه - هو والتاريخ الثقافي - هم أكثر من تأثروا بأفكار كبار اللغويين ونقاد اللغة والأدب والفكر بوجه عام، ووظفوا أفكارهم في مجال الدراسات التاريخية. تأثر هؤلاء المؤرخون بمفكرين مثل جاك دريدا Jacques Derrida (1930-2004)، وهانس-جورج غادامير Hans-Georg Gadamer (1900-2002)، ومارتن هايدغر Martin Heidegger (1889-1976)، وميخائيل باختين Mikhail Bakhtin (1895-1975)، وآخرين سابقين عليهم أو معاصرين لهم، مثل لودفيغ فيتغنشتاين Ludwig Wittgenstein (1889-1951)، وجون لانجشو أوستن John L. Austin (1911-1960) وغيرهما⁽²⁵⁾. ركز منظرو الفكر الجدد على دور اللغة، باعتبارها المحدد الثقافي الأهم - أو "الوحيد" - في نظرهم، الذي يمثل "البنية التحتية" لكل عناصر الثقافة الأخرى⁽²⁶⁾. فمن تأثر بأفكار أوستن عن "الأفعال الكلامية" Speech Acts، على سبيل المثال، نظر إلى التفكير بوصفه "عملية اجتماعية" يتطلب فهمها معرفة ما قصد الناس - بمن في ذلك المفكرون - "فعله" من خلال استخدام اللغة في سياق معين⁽²⁷⁾.

قامت أفكار النقد الجديدة في منتصف القرن العشرين على أن اللغة ليست مجرد أداة تعبير، بل هي أداة إنتاج المعنى نفسه، ما يعني أن اللغة تحديداً هي التي تحاصر المؤلف، وليست الثقافة بوجه عام. وفي دراسة الماضي، لا يستطيع المؤلف مطلقاً أن يفترض أن لغة المصادر تعكس أي واقع فعلي، أو أن لغته هو تعكس محتوى تلك المصادر. هنا ندخل في سلسلة لامتناهية من البعد عن الواقع، بفرض وجود "واقع" موضوعي

22 ينظر، على سبيل المثال، موقف بعض المؤرخين من التاريخ الفكري في الجزء الخاص بإشكاليات التاريخ الفكري في هذه الدراسة.
23 عقد المؤتمر عام 1980 بعنوان "مستقبل التاريخ الفكري الأوروبي" في جامعة كورنيل الأميركية المرموقة، التي يعد المؤرخ الأميركي دومينيك لاكابرا أحد أهم أعلام مؤرخيها. وعن هذا المؤتمر وما اقترحه لاكابرا من حلول للخروج من الأزمة، ينظر مداخلات لاكابرا المسجلة على موقع جامعة كورنيل، في: "Intellectual History: A Reconsideration," Cornell University Library, 24/4/1980, accessed on 5/5/2020, at: <https://bit.ly/2Wx2YPN>
باختصار، رأى لاكابرا ضرورة إعادة طرح أسئلة نظرية تتعلق بالتاريخ الفكري، بل بتحديد نوع البحث التاريخي الذي يمكن أن يُطلق عليه "التاريخ الفكري". وعن أفكار لاكابرا عن التاريخ الفكري وعلاقته بأنواع الدراسات التاريخية الأخرى، بل بالأدب والنظرية الأدبية والتحليل النفسي وعلم الأخلاق، ينظر: Cristiano Pinheiro de Paula Couto, "Interview with Dominick LaCapra," *Intellectual History Review*, vol. 24, no. 2 (2014), pp. 239-257.

24 Russel Jacoby, "A New Intellectual History?" *The American Historical Review*, vol. 97, no. 2 (April 1992), p. 406, fn. 7.

وصولاً إلى ثمانينيات القرن نفسه، ينظر: Miller, p. 367؛ وينظر أيضاً رد لاكابرا على راسل جاكوبي (أستاذ التاريخ بجامعة كاليفورنيا لوس أنجلوس) في: Dominick LaCapra, "Intellectual History and Its Ways," *The American Historical Review*, vol. 97, no. 2 (April 1992), pp. 425-439.

بيد أن جاكوبي يربط بين أزمة التاريخ الفكري في ذلك الوقت وأزمة التاريخ عموماً، وهي الأزمة التي تصدى لها هايدن وايت في ستينيات القرن العشرين. أدرك وايت أن محاولة المؤرخين تجنّب نقد علماء العلوم الاجتماعية (من خلال الزعم المتمثل بأن التاريخ "فن"، وكذلك نقد المتخصصين في الأدب والفن) من خلال الزعم المتمثل بأن التاريخ "علم" لم يُرض هؤلاء ولا هؤلاء. ورأى وايت أن جذور التاريخ توجد في الخيال الأدبي، وأن المؤرخ المعاصر يجب أن يفتتح على الفنون والأدب، مع الأخذ ببعض نصيب من العلم الحديث، ينظر: 408-Ibid., pp. 409-408؛ ينسب جاكوبي إلى لاكابرا قوله إنه لم يكن لأي مؤرخ في الولايات المتحدة التأثير الذي كان لوايت في الدراسات التاريخية في القرن العشرين، ينظر: Ibid., p. 407.

يلزمنا التنويه هنا بأن وايت لم يكن من المحمسين للتاريخ الفكري، إذ ربما اعتبره محاولة من الطبقات المهيمنة لإبقاء الأوضاع على ما هي عليه من خلال التركيز على الفكر (الذي يسعى إلى الفهم، وليس إلى التغيير)، وليس العمل، ينظر: 608-White, pp. 609.

25 Kelley, p. 154; Riccardo Bavaj, "Intellectual History," Version 1.0, *Docupedia-Zeitgeschichte*, 13/9/2010, p. 5, accessed on 5/5/2020, at: <https://bit.ly/2YGB8YO>

26 وعند المفكر الفرنسي الشهير ميشيل فوكو Michel Foucault (1926-1984)، فإن اللغة بوصفها تكويناً اجتماعياً تفرض قيوداً على التفكير، ينظر: Kelley, p. 158.

27 Bavaj, p. 6.

والجدير بالذكر هنا أن بعض المنتمين إلى التاريخ الفكري لا يعتبرون المؤرخين المتأثرين بهذا التحول ممارسين للتاريخ الفكري الحقيقي، ينظر، على سبيل المثال: Stefan Collini, "Intellectual History," *The Institute of History Research, Making History* (2008), p. 4, accessed on 5/5/2020, at: <https://bit.ly/3dkJWCX>

يمكن رصده في المقام الأول. فالمؤلف يعبر عن مكنونه من خلال لغة تحددها أطر بنيوية وثقافية، ليأتي مؤلف آخر ويفسر ما قاله الأول باستخدام لغة (قد تكون هي نفسها لغة المؤلف الأول) تحددها أطر ثقافية مختلفة، وهكذا دواليك في سلسلة لا تنتهي من التأليف والتأويل وإعادة التأويل، في جدلية اللغة ذات الأطر البنيوية والثقافية، وتعبير المؤلف والمؤؤل والنقاد عن تلك الأفكار باستخدام لغة ذات أطر بنيوية وثقافية مختلفة. هنا، يتقاطع التاريخ الفكري مع التاريخ الثقافي، وبنزوي - كما يوضح المؤرخ الأميركي دونالد آر. كيلبي (1931-)، رئيس الجمعية الدولية للتاريخ الفكري International Society for Intellectual History - جدل السياق الداخلي والسياق الخارجي إلى عالم الإستيمولوجيا الذي لا يهيم المؤرخ الفكري أو الثقافي بصورة مباشرة⁽²⁸⁾. وهنا تظهر أسماء مثل المؤرخ الأميركي دومينيك لاكابرا (1939-) الذي تأثر كثيراً بأفكار دريدا التفكيكية، ورفضه لفكرة البحث عن دلالات النص خارج النص نفسه⁽²⁹⁾. كما يظهر أثر ذلك التوجه الجديد بوضوح عند المؤرخ الأميركي ساندي كوهين Sande Cohen (1946-)، الذي وظف أفكار رولان بارت Roland Barthes (1915-1980)، وجان بودريار Jean Baudrillard (1929-2007)، وجان فرانسوا ليوتار Jean-François Lyotard (1924-1998)، وغيرهم من نقاد الأدب والثقافة واللغة⁽³⁰⁾.

4. التاريخ الفكري في القرن الحادي والعشرين

وفي القرن الحادي والعشرين، ظهرت مجموعة جديدة من دوريات التاريخ الفكري، من أهمها دورية التاريخ الفكري الحديث *Modern Intellectual History* التي تنشرها مطبعة جامعة كامبريدج البريطانية منذ عام 2004، ومراجعات التاريخ الفكري *Intellectual History Review* التي ترتبط - منذ ظهورها عام 2007 - بـ "الجمعية الدولية للتاريخ الفكري" التي تأسست في لندن عام 1994. كما ظهرت أيضاً مجموعة من الدوريات الجديدة في ألمانيا، مثل دورية تاريخ الأفكار *Zeitschrift für Ideengeschichte* في عام 2007⁽³¹⁾، بل أعادت بعض الدوريات التاريخية الألمانية العريقة - مثل الدورية التاريخية *Historische Zeitschrift* ودورية التاريخ والمجتمع *Geschichte und Gesellschaft*⁽³²⁾ - النظر في طبيعة التاريخ الفكري والدور الذي يمكن أن يؤديه في الدراسات التاريخية، تماماً كما فعلت بعض الدوريات الأخرى المتخصصة في تاريخ الأفكار أو المنفتحة عليه في أوروبا والولايات المتحدة⁽³³⁾. تعكس هذه الدوريات الحديثة النشأة محاولة إنعاش التاريخ الفكري من جهة، وتأكيد كونه غرضاً من أغراض الدراسات التاريخية التي تتداخل فيها التخصصات *Interdisciplinary*⁽³⁴⁾ على نحو يعكس التوجه العام في الدراسات الإنسانية، وربما الاجتماعية والأكاديمية بوجه عام.

28 Kelley, pp. 143-169.

وفي دراسة أخرى مهمة ومعبرة عن جدل "الداخل" و"الخارج"، يعبر كيلبي عن العلاقة بين التاريخ الفكري والتاريخ الثقافي بالقول إنه بينما يمثل التاريخ الفكري "داخلاً" التاريخ الثقافي، يمثل التاريخ الثقافي "خارج" التاريخ الفكري. وتصبح مهمة المؤرخ هنا هي الجمع بين الاثنين، ينظر: Donald R. Kelley, "Intellectual History in a Global Age," *Journal of the History of Ideas*, vol. 66, no. 2 (April 2005), pp. 157-158.

29 للمزيد عن رأي لاكابرا في علاقة التاريخ باللغة، ينظر:

Dominick LaCapra, *Rethinking Intellectual History: Texts, Contexts, Language* (Ithaca/ London: Cornell University Press, 1983).

وعن تأثر لاكابرا بأفكار دريدا، ينظر: Jacoby, pp. 414-419؛ بيد أن تركيز لاكابرا على النص لا يعني اعتقاده بإمكانية الوصول إلى معرفة تاريخية "موضوعية" من خلال النصوص؛ فالنصوص، في نظره، تفتح دائماً احتمالات متجددة، ينظر في ذلك: Miller, p. 362.

30 عن ساندي كوهين، ينظر: Jacoby, p. 419.

يشير جاكوبي هنا إلى أثر إيجابي من آثار التأثير بالمفكرين الذين تأثر بهم كوهين، ألا وهو الاهتمام بالصياغة اللغوية التي تعبر عن المعنى المقصود بدقة. بيد أن ذلك أدى في كثير من الأحيان إلى العكس تماماً، إذ جعل لغة كوهين - بحسب جاكوبي - غامضة بدرجة يصعب فهمها؛ ينطبق الأمر نفسه على مؤرخين آخرين تأثروا بنظريات النقد الأدبي والثقافي، ما قادهم إلى افتراض غموض النصوص ومن ثم التركيز على ذاتية المؤرخ وتحيزاته الحتمية، ينظر: Ibid., p. 424.

31 Bavaj, p. 12.

32 Ibid., p. 13.

33 مثل دورية تاريخ الأفكار الأوروبية *History of European Ideas*، بل دورية تاريخ الأفكار نفسها التي أسسها لفجوي.

34 ويعتقد روبرت دارنتون (1939-)، وهو أستاذ كرسي في قسم التاريخ بجامعة برنستون الأميركية المرموقة، أن الاهتمام بالعلاقة بين النصوص المختلفة *Intertextuality* هو الذي يميز التاريخ الفكري المعاصر من تاريخ الأفكار الخاص عند لفجوي، إذ ركز هذا الأخير أساساً على دراسة أحاد الكتب، بينما يهتم التاريخ الفكري بكافة أشكال الإنتاج الفكري في الفترة الزمنية موضوع دراسته، ينظر:

Robert Darnton, "Discourse and Diffusion," *Contributions to the History of Concepts*, vol. 1, no. 1 (March 2005), p. 21.

وعلى الرغم من كل هذه التطورات، فإن التاريخ الفكري - في نظر المؤرخ ستيفان كوليني (1947-)، وهو أحد أشد المدافعين عن التاريخ الفكري - ما زال يعيش أزمة مؤسسية، وإن تجاوز الأزمة المرتبطة بشرعية الوجود. قد يكون أبسط مظاهر هذه الأزمة هو عدم وجود كراسي جامعية أو برامج أكاديمية مخصصة للتاريخ الفكري بصورة حصرية، على الأقل في جامعات بريطانيا والولايات المتحدة. فكثير من ممارسي التاريخ الفكري ينتمون إلى أقسام غير أقسام التاريخ، ويضيع وصف "أستاذ التاريخ الفكري" بمجرد اختفائهم من تلك الأقسام⁽³⁵⁾. وحتى ستة أعوام مضت، ما زال أحد كبار أساتذة التاريخ الفكري - بيتر إي. غوردون (1966-)، أستاذ التاريخ بجامعة هارفارد الأميركية المرموقة - يشعر بحاجة إلى كتابة ورقة علمية يجيب فيها عن هذا السؤال: "ما هو تحديداً التاريخ الفكري؟"⁽³⁶⁾. فما هو التاريخ الفكري؟

ثانياً: التاريخ الفكري: الموضوع والمنهج

تقوم فكرة تفرد أي غرض من أغراض دراسة التاريخ على افتراض أن تداخل مواضيعه وأغراضه مع فروع الدراسات التاريخية الأخرى لا يعني ألا يسعى المؤرخ إلى الفصل بين اهتمامات هذه المواضيع والأغراض المختلفة، بحيث يكون لكل من التاريخ السياسي والتاريخ الاقتصادي والتاريخ الفكري أسئلته واهتماماته. بيد أنه في الوقت الذي قد يتفق فيه المؤرخون المنتسبون إلى هذه الفروع من الدراسات التاريخية على إطارها العام (حتى إن اختلفت مناهجهم أو حتى تصوراتهم لحدود العلاقة بين السياسي والاقتصادي، على سبيل المثال)، فإن المنتسبين إلى التاريخ الفكري يختلفون أحياناً اختلافات بينة، قد تكون هي نفسها سبباً من أسباب "الأزمات" التي مرّ بها التاريخ الفكري في تاريخه القصير نسبياً. ونستعرض هنا آراء بعض كبار المؤرخين المتخصصين في التاريخ الفكري فيما يخص إطاره وأوجه تفرده، ومن ثم علاقته بأغراض التاريخ الأخرى، ثم ناقش في المحور التالي من هذا البحث بعض الإشكاليات المرتبطة به.

تميز التاريخ الفكري موضوعاً ومنهجاً

في مقالة دالة عن الشعور بـ "أزمة" التاريخ الفكري في سبعينيات القرن العشرين، يربط المؤرخ الأميركي المعروف وأستاذ جامعة شيكاغو، ليونارد كريغر (1918-1990)، أزمة التاريخ الفكري بتعدد مناهجه، ما يعكس تعدد أغراضه بصورة "تثير الشكوك حول مدى تماسكه بوصفه فرعاً متميزاً ومستقلاً من فروع الدراسات التاريخية"⁽³⁷⁾. ويعبر رأي كريغر عن إشكاليات يواجهها التاريخ الفكري بصفة عامة ترتبط بموضوعه ومنهجه. ويمكن التعبير عن تلك الإشكاليات من خلال هذه الأسئلة المحددة: هل يتفرد التاريخ الفكري عن

35 ويُعد كوليني نفسه مثلاً معترفاً هنا، إذ إنه يشغل وظيفة أستاذ التاريخ الفكري والأدب الإنكليزي في جامعة كامبريدج البريطانية المرموقة، ولكن ليس في قسم التاريخ، وإنما في "كلية اللغة الإنكليزية" (ينظر صفحته الشخصية على موقع القسم الذي ينتمي إليه، في: <https://bit.ly/3dmkDkc>). ويستثنى كوليني هنا جامعة ساكس University of Sussex، إذ يوجد بها تخصص التاريخ الفكري الذي يقوم بتدريسه مؤرخون متخصصون في هذا التخصص تحديداً. وعن هذه الفكرة نفسها؛ ينظر: White, p. 616، إذ صرح وايت بأن أكثر أعمال التاريخ الفكري ذات القيمة لم يُم بها مؤرخون محترفون، بل متخصصون في الفلسفة والأدب أو الفن؛ ينظر أيضاً:

Quentin Skinner, "On Intellectual History and the History of Books," *Contributions to the History of Concepts*, vol. 1, no. 1 (March 2005), p. 29.

36 Gordon, p. 1;

وعلى الرغم من اتفاق محري أحد الكتب الصادرة في السنوات الأخيرة عن التاريخ الفكري مع غوردون في عدم وجود اتفاق حول منهج المشتغلين بالتاريخ الفكري، فإنهما يصران على أن التاريخ الفكري قد تجاوز أزمته وأنه الآن في صعود، ينظر:

Darrin M. McMahon & Samuel Moyn (eds.), *Rethinking Modern European Intellectual History* (Oxford: Oxford University Press, 2014), pp. 3-4.

37 Krieger, p. 499.

غيره من أغراض التاريخ الأخرى في المنهج أم في الموضوع، أم في كليهما؟ وإذا كان موضوع التاريخ الفكري هو الأفكار عمومًا⁽³⁸⁾، فهل يركز مؤرخ الفكر على موضوعات بعينها، أم يحاول البحث عن عموميات الفكر في الحقبة الزمنية موضوع دراسته؟ وهل يقصر تركيزه على المفكرين فقط، أم يسعى لوصف كل الأفكار في الحقبة الزمنية التي يدرسها، وبعض النظر عن هوية صاحب تلك الأفكار (مفكر/ أحد أفراد "العامة")، أو مدى "بساطتها"؟ وهل يجب على التاريخ الفكري أن يهتم بالأفكار كلها، أم يركز على الأفكار التي كان لها أثر ما في الواقع؟ وهل يتعامل المؤرخ مع الأفكار بوصفها ذات عالم خاص، أم يسعى لفهمها في سياق ما؟ وإذا كانت الإجابة "في سياق ما"، فما هو ذلك السياق؟

في منتصف القرن العشرين - أي حين كان التاريخ الفكري ما زال في طور البحث عن الشرعية - صرح المؤرخ الأميركي جون سي. غرين (1917-2008) بأن كل التأريخ هو تأريخ فكري بصورة أو بأخرى، بيد أن ما يميز التاريخ الفكري من غيره هو تركيزه - من جهة الموضوع - على الأفكار العامة وأنماطها والافتراضات التي تقوم عليها والتغير الذي يطرأ عليها من حقبة تاريخية إلى أخرى، ومن ثم رصد التحولات التي تمرّ بها تلك الأفكار الكبرى ومحاولة تفسير اختفاء بعضها أو تهميشه. ولكي يتمكن مؤرخ الأفكار من تحديد تلك الأفكار العامة، ينبغي له - من جهة المنهج - دراسة أكبر قدر ممكن من أدبيات حقبة معينة بحثًا عمّا يجمعها من افتراضات، وذلك باستخدام منهج تحليلي وتركيبية⁽³⁹⁾. ويقصر غرين هنا بكل وضوح تركيزه على المفكرين وإنتاجهم الفكري، ويعترف بدور السياق الفكري العام في تشكيل الأفكار، إذ يؤكد أن الاكتشافات أو النظريات العلمية في حقل معرفي ما تؤثر في كل الحقول الأخرى. فنظرية التطور البيولوجي، على سبيل المثال، تؤثر في طبيعة النظرة إلى المجتمع بوصفه أيضًا متغيرًا وتقدميًا⁽⁴⁰⁾.

يتفق المؤرخ الأميركي فرانكلين إل. باومر (1913-1990)⁽⁴¹⁾، مع غرين عمومًا، إذ حدد أغراضًا أربعة مميّزة للتاريخ الفكري على مستويي الموضوع والمنهج، ألا وهي الكشف عن "روح العصر" *Zeitgeist* أو "المناخ الفكري" *Intellectual Climate* لعصر ما، من خلال تتبع مجموعة الآراء المتداولة فيه والمهيمنة عليه⁽⁴²⁾، والكشف عن أسباب التحولات الفكرية ودوافعها ومظاهرها⁽⁴³⁾، والكشف عن أثر

38 ما يجعل التاريخ الفكري شاملاً لتاريخ الفلسفة وفلسفة التاريخ وتاريخ العلم والأدب والفن وتاريخ الذهنيات والتصورات والأيدولوجيات وتاريخ الفكر السياسي والثقافات السياسية وتاريخ المثقفين وتاريخ الكتاب وتاريخ الإعلام والتاريخ المرئي.

39 John C. Greene, "Objectives and Methods in Intellectual History," *The Mississippi Valley Historical Review*, vol. 44, no. 1 (June 1957), p. 60. ويرى غرين أنه من خلال تحديد ما هو عام ومعتاد، يستطيع مؤرخ الأفكار تحديد ما هو فريد ومختلف، ينظر: *Ibid.*, p. 68؛ ومن خلال تحديد تلك الأفكار العامة (والمسترة دائمًا)، يساعد مؤرخ تاريخ الأفكار كل المؤرخين الآخرين في فهم أي ظواهر يخضعونها للدرس، سياسية كانت أو غيرها، ينظر: *Ibid.*, pp 59-60, 71.

40 Greene, p. 67؛ وفي حقبة زمنية كذلك التي يتحدث عنها غرين، تصبح الفكرة الافتراضية العامة التي تحكم كل جوانب التفكير هي التغير والتقدم والتطور، وهي أمور تقابل فكرة الثبات والاستمرارية. وبحق بعض مؤرخي التاريخ الفكري ذلك من خلال دراسة عدد كافٍ من المفكرين في حقبة زمنية ما، أو جماعة من المفكرين المنتمين إلى مؤسسات أكاديمية أو بحثية بعينها، ينظر: Krieger, p. 511؛ بيد أنه كما توضح المؤرخة الأميركية سوزان مارشاند، فإن صعوبة هذا الأمر تكمن في الكم غير المحدود من المصادر الثانوية التي يحتاج المؤرخ إلى دراستها في تلك الحالة. ولا يمثل التركيز على مفكر واحد حلًا لهذه المشكلة، إذ إنه مع ذلك الكم الهائل من المصادر الثانوية، يصعب على المؤرخ أن يأتي بشيء جديد إذا ركز على مؤرخ واحد فقط، وهو مطلب أساسي لنشر الأبحاث والكتب كما هو معلوم، ينظر:

Suzanne Marchand, "Problems and Prospects for Intellectual History," *New German Critique*, no. 65 (Spring-Summer 1995), pp. 87-96. والواقع أن مارشاند تضع يدها هنا على مشكلة عامة في الأكاديمية، ولا سيما في العلوم الإنسانية.

41 Franklin L. Baumer, "Intellectual History and its Problems," *The Journal of Modern History*, vol. 21, no. 3 (September 1949), pp. 191-203؛ كان باومر أستاذًا في جامعة ييل الأميركية العريقة، وتوفي عام 1990 عن 77 عامًا، ينظر:

"Franklin L. Baumer, Historian, 77," *The New York Times*, 18/9/1990, accessed on 5/5/2020, at: <https://nyti.ms/2SFGmM6>

42 Baumer, p. 191.

43 *Ibid.*, p. 194.

الأفكار في عالم الحركة⁽⁴⁴⁾، ثم التنبؤ - من خلال تحديد الإطار الفكري العام في الحاضر - بما قد تؤول إليه الأفكار في المستقبل⁽⁴⁵⁾. بيد أننا نجد هنا إشارة مهمة ودالة على العلاقة بين الفكر والفعل. لا يصحح باومر بضرورة تركيز التاريخ الفكري على الأفكار المرتبطة بالواقع من خلال تأثيرها في الفعل، ولكن حين نقرأ ما يؤكد باومر هنا، على خلفية أزمات التاريخ الفكري في القرن العشرين، يمكننا تصور ذلك رد فعل على الرأي القائل بكون التاريخ الفكري لا شيء، إذ إن التأريخ الحقيقي - بحسب هذه النظرة - يدرس الفعل، وليس الفكر، ما يعني أن الأفكار التي لم تنتج فعلاً ليست لها قيمة تاريخية⁽⁴⁶⁾.

أما المؤرخ الأميركي جون هايام (1920-2003)، فيرى أن التاريخ الفكري يختلف عن أنواع التاريخ الأخرى من جهة موضوعه، إذ إنه يركز على "التجارب التي تقع في عقول الناس". وفي هذا، يختلف التاريخ الفكري عن غيره بعدم وجود حدود لتساؤلاته⁽⁴⁷⁾. ويؤكد هايام أن تلك التساؤلات لا يجب أن تقتصر على الأفكار الكبيرة والمعقدة (أي أفكار كبار المفكرين)، بل يجب أن تشمل كل الأفكار، بما في ذلك أفكار بسطاء الناس⁽⁴⁸⁾. ويختلف هايام هنا بوضوح عن سبقت الإشارة إليهم من مؤرخي التاريخ الفكري، إذ يقصرون موضوع دراسته على أفكار المؤرخين. كما أن هايام، واتساقاً ربما مع موقفه في هذه القضية الأولى، لا يشترط "التأثير" في الأفكار موضوع دراسة التاريخ الفكري؛ فقد يدرس مؤرخ أفكاراً (لمفكرين أو لغيرهم) ليس لها تأثير واضح أو مباشر في عالم الحركة والفعل.

وفيما يخص سياق الأفكار، يميز هايام بين توجهين: توجه داخلي Internal Approach ينظر إلى الأفكار بوصفها تخلق عالماً خاصاً - أو سياقاً داخلياً - من القيم لا يحتاج إلى أن يستمد شرعيته من أي شيء خارجه (وهو الموقف الأقرب إلى العلوم الإنسانية). في مقابل توجه خارجي Outward Approach يبحث في أثر البيئة في الفكر وأثر الفكر في الفعل (وهو الموقف الأقرب إلى العلوم الاجتماعية)⁽⁴⁹⁾. ثم يبين هايام المشكلات الأساسية المرتبطة بكل من هذين التوجهين، إذ يعجز الربط الحتمي بين الأفكار والبيئة التي تظهر فيها (التوجه الخارجي) عن تفسير استمرارية بعض الأفكار بعد تغير البيئة التي ظهرت فيها (بل فقدانها تأثيرها عموماً). أما التوجه الأول (الداخلي) - الذي كان حاضنة التاريخ الفكري ويظل أكثر ارتباطاً به، بحسب هايام - فيجعل مهمة التاريخ الفكري شبه مستحيلة، إذ إنه يُعجز المؤرخ عن متابعة عملية تطور الأفكار وتلاقحها من خلال نزوعها عن أي سياق خارج عنها. وفي رأي هايام نفسه، فإن موقع المؤرخ يسمح له بتجسير الفجوة بين العلوم الاجتماعية والإنسانية من خلال الاستفادة من مناهجها، فيستفيد من مناهج العلوم الاجتماعية الكمية، ويستفيد من مناهج الإنسانيات في دراسة عالم الأفكار والقيم والخيال، وهي أمور لا تخضع لقياس كمي، وإنما لـ "استكشاف نوعي"⁽⁵⁰⁾.

واتساقاً مع الرأي القائل بأن المتميز في التاريخ الفكري هو منهجه، يوضح فيليكس غيلبرت (1905-1991)، وهو مؤرخ أميركي من أصل ألماني، أن التاريخ الفكري من جهة الموضوع ليس غرضاً جديداً من أغراض البحث في الماضي، إذ اهتم الفلاسفة والمفكرون دائماً

44 Ibid., p. 200.

45 Ibid., p. 202.

46 Krieger, p. 500.

يعتقد كريغر نفسه أن التاريخ الفكري يهتم بالفعل بأثر الأفكار في "أنشطة الناس التاريخية الأخرى"، إلا أن ذلك لا يعني في نظره أنه يجب ألا يميز بوصفه فرعاً مستقلاً من فروع الدراسات التاريخية، ينظر: Ibid., p. 501.

47 John Higham, "Intellectual History and its Neighbors," *Journal of the History of Ideas*, vol. 15, no. 3 (June 1954), p. 341.

48 Ibid., p. 340.

49 يعبر وايت عن هذه الفكرة بصورة موجزة وبارعة في الوقت نفسه، إذ يقول إن الانتقال من البحث عن "ما حدث بالفعل" (مدرسة رانكه) إلى البحث عن "ما تصور الناس أنه يحدث، والطريقة التي أثرت بها تلك التصورات في استجاباتهم للمشكلات التي كانت تواجههم" كان أحد محفزات ظهور التاريخ الفكري وتطوره، ينظر: White, p. 607.

50 Higham, p. 343.

بدراسة ما أنتجه السابقون عليهم⁽⁵¹⁾. ولكي يوضح منهج التاريخ الفكري، يشير غيلبرت إلى الكتاب الذي عدّه أول مؤلف حقيقي فيه، إذ قام مؤلفه بالتركيز على ترابط المعارف الإنسانية وتداخلها، ليثبت أن أي تطور فكري في مجال ما يحدث أثرًا في الفكر والحركة في كل المجالات الأخرى⁽⁵²⁾. وقد كان للماركسية - بتأثيرها الضخم في الفكر الأوروبي منذ نهايات القرن التاسع عشر - دور في التنبيه على العلاقة اللازمة بين العناصر الفكرية والمادية المختلفة في مجتمع ما؛ فضلًا عن رفض كارل ماركس الكامل للتركيز الهيجلي على الأفكار من دون اعتبار يذكر للمادة، فقد أكد أيضًا وجود بنية Structure للأشياء، بحيث يحدث التغيير في أي من عناصرها تغييرًا في العناصر الأخرى بالضرورة⁽⁵³⁾. كما كان للتقدم الذي شهدته العلوم الطبيعية في القرن التاسع عشر دور في الانتباه إلى المادة والتخلي عن فكرة وجود حقيقة وجودية خارج عالم الظواهر الخاضعة للتجربة⁽⁵⁴⁾. الخلاصة هنا هي أن الأفكار ليس لها عالمها الخاص المنفصل عن الواقع، كما أنها ترتبط بالسياق الفكري العام في أي حقبة زمنية، بحيث تؤثر في الأفكار الأخرى وتتأثر بها في الوقت نفسه.

ويتفق المؤرخ الأميركي بيتر غوردون مع غيلبرت في أن ما يميز التاريخ الفكري هو منهجه، وليس موضوعه. فالتاريخ الفكري قد يتناول ما يهتم به الفيلسوف في تاريخ الفلسفة، إلا أن ما يميز المؤرخ الفكري من ذلك الفيلسوف (وبالمثل نفسه أي مهتم بتاريخ علم ما مع تخصصه هو نفسه فيه) هو أنه بينما يهتم الفيلسوف بـ "تقييم" الأفكار التي يدرسها على أساس تماسكها الداخلي، يهتم التاريخ الفكري بـ "فهم" تلك الأفكار، ليس في سياقها الفكري فقط كما قد يفعل الفيلسوف، بل في سياقاتها السياسية والاجتماعية أو الخطابية أو الشخصية الخاصة بالمؤلف نفسه⁽⁵⁵⁾. ويمكن هذا المؤرخ المتخصص في التاريخ الفكري من الربط بين نصوص قد لا يجد الفيلسوف علاقة بينها، أو حتى الربط بين أفكار قد تتجاوز حدود متطلبات الفلسفة الأكاديمية المعاصرة⁽⁵⁶⁾.

أ. التاريخ الفكري والتاريخ الثقافي

على الرغم من الاختلافات التي نراها بين كل هؤلاء المؤرخين المنتمين إلى التاريخ الفكري، فإننا نلاحظ أن لديهم توجيهًا عامًا نحو توسيع إطاره، بحيث يشمل كل مناحي الفكر في الفترة الزمنية لموضوع الدراسة، وإن اختلفوا في منهج القيام بذلك. بيد أن هذا الإطار الواسع قد يعطي التاريخ الفكري بعض المزايا عن غيره من أغراض التاريخ، إلا أنه جعل التاريخ الفكري عرضة للهجوم موضوعًا ومنهجيًا، ما دفع المشتغلين به إلى التمييز بينه وبين مجالات قد تبدو بديلًا منه. وربما يكون أهم تلك المجالات هو ما يطلق عليه "التاريخ الثقافي"، إذ كانت العلاقة بينه وبين التاريخ الفكري محل جدل بين المهتمين بهما⁽⁵⁷⁾. وقد ميز بينهما بعض المؤرخين باعتبار الموضوع؛ فالتاريخ الثقافي يتناول كل ما له علاقة بثقافة ما، سواء كانت شعبية (بما تشمله من معتقدات وممارسات)، أو غير ذلك (مثل الفنون الجميلة وعالم الرموز المرتبط بالهوية الوطنية مثلًا، فضلًا عن المعتقدات والممارسات المرتبطة بالجسد البشري)⁽⁵⁸⁾. وبهذا المفهوم، يدين التاريخ الثقافي بفضل كبير لمدرسة الحوليات الفرنسية، إذ كان مؤرخوها روادًا في الاهتمام بالثقافة بمفهومها العام من دون قصرها على النخبة السياسية. ومهما كان الأمر هنا، فقد رأينا أن بعض رواد التاريخ الفكري لا يقصرون موضوعه على أفكار المفكرين "المعقدة"، بل

51 يعبر كيلي عن الفكرة نفسها، ينظر: Kelley, "Horizons of Intellectual History," pp. 143-169.

52 Gilbert, p. 82.

والتاريخ المقصود هو كتاب المؤرخ الأميركي، أستاذ التاريخ في جامعة هارفارد، بيري ميلر Perry Miller (1905-1963) *عقل إنكلترا الجديدة* *New England Mind*.

53 Ibid., p. 87.

54 Ibid., p. 88.

55 Gordon, p. 3.

56 Ibid., pp. 3-4.

57 Bavaj, p. 2.

58 Gordon, p. 9.

يرونه شاملاً لكل الأفكار (مثل هايام). وليس من المستغرب إذًا أن يتداخل موضوع التاريخ الثقافي مع التاريخ الفكري لدى البعض، ما يعني أنه في البحث عن الفرق بينهما، لا يجب النظر إلى الموضوع، بل إلى المنهج. وهنا، يعتقد غوردون أن الفرق بين التاريخ الفكري والتاريخ الثقافي هو أنه بينما يركز الأول على الأفكار بصرف النظر عن مدى انتشارها (ما عرّض التاريخ الفكري للاتهام بالخبوية)، يركز الثاني على الأفكار التي انتشرت خارج نطاق النخبة الفكرية (إن كانت هذه النخبة مصدرها) وتفعّلت على مستويي التفكير والممارسة الشعبيين، فضلاً عن مستوى الخطاب العام⁽⁵⁹⁾. ومع هذه المحاولات للتمييز بين التاريخ الفكري والتاريخ الثقافي، فإن العلاقة بينهما تظل إشكالية، وهو الأمر الذي نتناوله بمزيد من التفصيل في معرض الحديث عن بعض إشكاليات التاريخ الفكري لاحقاً.

ب. التاريخ الفكري وتاريخ الكتب

كما ميّز التاريخ الفكري نفسه من مجال آخر كان شديد الصلة به، ألا وهو "تاريخ الكتاب" (أو "تاريخ الكتب") / Book history / History of books، إذ إنه على الرغم من العلاقة التكاملية بينهما، فإن التاريخ الفكري يهتم أساساً بمضمون الكتب ومحتواها، بينما يهتم تاريخ الكتب برصد مراحل تأليف الكتب ونشرها وانتشارها Diffusion، وهي عملية معقدة ترتبط بعدد كبير من العوامل التي تخص المؤلف والمحرر والناشر، وغيرها من أمور⁽⁶⁰⁾. ولا يخفى بالطبع أن رصد ما قرأه القراء "العاديون" في فترة زمنية معينة قد يكون مؤشراً على مدى فاعلية تلك الأفكار في تكوين الرأي العام في مجتمع ما، وهو الأمر الذي يفيد التاريخ الفكري لدى هؤلاء الذين يصرون على شموليته، وليس اقتصره على أفكار المفكرين فحسب⁽⁶¹⁾.

بيد أن التمييز بين التاريخ الفكري وتاريخ الكتاب - سواء حسبناه تمييزاً مبرراً ومطلوباً أو غير ذلك - لا يقابله تمييز بين التاريخ الفكري وأغراض تاريخية أخرى. أذكر هنا نموذج تاريخ الفكر السياسي بصفة خاصة، إذ يحسبه بعض المؤرخين - بحسب غوردون - مهمماً على التاريخ الفكري، كما يظهر في مؤلفات أغلب الممارسين له. ويذكر غوردون هنا مثال "مدرسة كامبريدج" وعلى رأسها المؤرخ البريطاني المعروف كوينتين سكينر (1940-) ⁽⁶²⁾. ويُعد سكينر من أهم مؤرخي ومنظري التاريخ الفكري المعاصرين، إلا أن اهتمامه ينصبّ على الفكر السياسي

59 Ibid., p. 10.

وكما حدث في العلاقة بين التاريخ الفكري والتاريخ الاجتماعي، سعى بعض المتسبين إلى التاريخ الثقافي أيضاً إلى تهميش التاريخ الفكري، ينظر: Müller, p. 575. أعرض هذه الفكرة على أنها من عناصر المنهج، لأن المنهج - على خلاف الموضوع الذي هو وصفي أساساً - يفتقر دائماً إلى التأويل والتحليل والتركيب والتقييم، وهي كلها أمور مطلوبة في الحكم على مدى انتشار الأفكار وتفاعلها على مستويي الفكر والممارسة.

60 Darnton, p. 21.

يأسف دارنتون على هذا الانفصال بين التاريخ الفكري وتاريخ الكتاب، ويعزو هذا الانفصال إلى التوجه العام في العلوم الإنسانية نحو الشعب والتفتت، وليس التقارب والتعاون، ينظر: Ibid.؛ وعن عرض شائق للعلاقة بين التاريخ الفكري وتاريخ الكتب، ينظر: Skinner, pp. 29-36؛ وعن العوامل المرتبطة بتأليف الكتب ونشرها وانتشارها، ينظر الهامش التالي.

61 وجب التنويه، بكل تأكيد، إلى أن عملية رصد مبيعات الكتب تفترض بدورها توفر الكتب بأسعار تمكّن عدداً كافياً من الناس من اقتنائها، ما يفترض بدوره وجود عدد كبير نسبياً من القراء في مجتمع ما. بدأت هذه الأمور في التحقق بوجه عام مع اختراع الطباعة وبداية "الإصلاح الديني" في أوروبا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر على التوالي. وبحلول نهاية القرن الثامن عشر وقيام الثورة الفرنسية، أصبح في الإمكان معرفة كثير من المعلومات عن مؤلفي الكتب وأساليب الرقابة على مؤلفاتهم (وجهة الرقابة: الكنيسة أم الدولة)، والعلاقة بين هؤلاء وبين الناشرين، وطريقة الطباعة وأشكال الحروف (بل تمييز بعض الكلمات بألوان معينة، مع أثر ذلك في "استقبال القراء للنص")، وأسعار بيع الكتب ومبيعاتها، وانتشار المكتبات العامة، بل تطور مفهوم القراءة نفسه، وهي كلها أمور يهتم بها "تاريخ الكتاب"، ينظر: Darnton, p. 25؛ وكما يوضح المؤرخ الأمريكي جوزيف ليفين، فإن معرفة المراحل التي مرّ بها النص (التي قد يقوم بها محرر Editor بصفته مؤرخاً هنا) لدى الكاتب ثم المحرر ثم الناشر ثم محررين وناشرين آخرين تساعدنا كثيراً في تتبع "عملية التفكير" واستعادتها، وهذه المعرفة هي أساسية للمؤرخ مثلها مثل نتائج تلك العملية، ينظر:

Joseph M. Levine, "Intellectual History as History," *Journal of the History of Ideas*, vol. 66, no. 2 (April 2005), pp. 195, 198;

وقد نضيف إلى كل ذلك عملية بناء الأفكار نفسها. لهذا السبب، يعتقد ليفين محقاً بضرورة تمرّس المؤرخ في عدد من المعارف الضرورية له، مثل الفيلولوجيا والبيولوجيا والبيولوجيا والبيولوجيا، ينظر: Ibid., p. 196.

62 وينتمي إلى المدرسة نفسها، التي ترتبط أساساً بالتاريخ السياسي، المؤرخ جون بوكوك.

خاصة⁽⁶³⁾. وفي بريطانيا أيضاً، اهتم المفكر المعروف إزايا برلين Isaiiah Berlin (1909-1997) بالتاريخ السياسي بوصفه حقل التاريخ الأكثر فائدة لتأسيس نظام سياسي عادل⁽⁶⁴⁾. ويعزو غوردون هذا الاهتمام بتاريخ الفكر والفلسفة السياسيين في بريطانيا (وكذلك في الولايات المتحدة على يد مجموعة من المؤرخين الأوروبيين الذين هاجروا إليها حاملين معهم إرث قارتهم⁽⁶⁵⁾) إلى غياب اهتمام مؤرخي الفلسفة به، باعتباره أقل شأنًا من فروع الفكر والفلسفة الأخرى⁽⁶⁶⁾. بيد أنه يعكس أيضًا الجدل حول الأفكار التي "تستحق" أن تكون موضوعًا للتاريخ الفكري (ينظر المحور التالي من البحث عن إشكاليات التاريخ الفكري)، إذ تعتبر الأفكار السياسية الأقرب إلى عالم الواقع والأقدر على التأثير فيه.

نكتفي هنا بالأمثلة السابقة لمحاولات التمييز بين التاريخ الفكري من جهة، وأغراض التاريخ وفروعه الأخرى من جهة ثانية⁽⁶⁷⁾. وليس من المستغرب إذًا أن يوصف التاريخ الفكري بأنه ذو حدود مروّعة، وهو ما يرجع إلى انتماء من يكتبون فيه إلى مجموعة مختلفة من التخصصات الأكاديمية، ومن ثم تعدد اهتماماتهم الموضوعية وتوجهاتهم المنهجية وتنوعها⁽⁶⁸⁾. ويعود بنا هذا إلى رأي كريغر المشار إليه في بداية المحور الثاني من البحث (أي الشكوك حول تماسك التاريخ الفكري)، وهو ما يقودنا إلى المحور الثالث منه، حيث نركز على بعض أسئلة التاريخ الفكري وإشكالياته العامة.

ثالثًا: التاريخ الفكري: أسئلته وإشكالياته

ارتبط التاريخ الفكري منذ ظهوره بعدد من الإشكاليات، وهي إشكاليات تواجه المؤرخ بوجه عام بصرف النظر عن مجال اهتمامه، ولا يتميز بها التاريخ الفكري بالضرورة إلا من جهة موضوعه، أي الأفكار والمفكرين.

1. إشكالية قراءة الأفكار في سياق تاريخي مغاير لسياقها

ترتبط إشكالية التاريخ الفكري المعرفية الأهم بإمكانية قراءة المؤرخ أفكار الماضي في إطار سياق مختلف عن سياقها، ما يزيد من احتمالات فهم تلك الأفكار فهمًا يختلف عن مراد صاحبها. ولا تتباين صعوبة هذه الإشكالية بحسب بُعد سياق الأفكار من سياق المؤرخ أو قربها منها؛ فلا توجد ميزة نسبية، على سبيل المثال، لدراسة مفهوم مثل الحرية عند اليونان القدماء من جهة، وعند مفكري عصر النهضة الأوروبية من جهة أخرى. فبُعد السياق اليوناني يساعد المؤرخ الحديث بالفعل على رؤية التمايزات بين مفهوم الحرية عند اليونان ومفهومه في عصر المؤرخ الحديث، إلا أن بُعد السياق التاريخي يصعب مهمة المؤرخ في تفسير مفهوم اليونان عن الحرية في سياقها الفكري والثقافي الأوسع. وبالعكس، فإن قرب عصر النهضة النسبي من عصر المؤرخ الحديث يبسّر من عملية تفسير مفهوم الحرية في عصر النهضة في سياقها التاريخي، إلا أن ذلك القرب الزمني، وربما المفاهيمي، قد يقلل من قدرة المؤرخ على ملاحظة الاختلافات

63 Gordon, p. 7.

كما أن سكينر هو أحد هؤلاء المؤرخين الذين تأثروا أشد التأثر بالنظريات اللغوية الحديثة، إذ يعتبر السياق اللغوي هو الأهم لفهم سياق الأفكار التاريخي. عن ذلك، ينظر دراسة سكينر الطويلة والرائعة عن "المعنى والفهم في تاريخ الأفكار":

Quentin Skinner, "Meaning and Understanding in the History of Ideas," *History and Theory*, vol. 8, no. 1 (1969), pp. 3-53.

64 Gordon, p. 6.

65 مثل حنا أرندت Hannah Arendt (1906-1975)، وليو شتراوس Leo Strauss (1899-1973)، وتيودور أدورنو Theodor Adorno (1903-1969)، وغيرهم.

66 Gordon, p. 8.

67 بيد أن هذا لا يعني التقليل من أهمية العلاقة أو الاختلاف بين التاريخ الفكري وتلك المعارف. وعن العلاقة بين التاريخ الفكري وعلم الاجتماع وتطور ما يطلق عليه "علم اجتماع المعرفة" Sociology of knowledge نتيجة تلاقحهما، ينظر: 15-Ibid., pp. 12.

68 Bavaj, p. 3.

يضيف بافاج أيضًا محدودية التواصل بين هؤلاء، وهو وإن كان صحيحًا في الجامعات الغربية بصفة عامة، فإنه أكثر صحةً في الجامعات العربية التي "تقسم" فيها المعارف بصورة حرفية في أقسام لا تتواصل مع بعضها، حتى لو جمعتها كليةً أم. ولصعوبة التعميم على حدود أو توجه التاريخ الفكري، ينظر أيضًا: 405-Jacoby, pp. 424.

ورصدها بين فكرته الحديثة عن الحرية وفكرة عصر النهضة عنه. فلفاهيم تتطور ببطء، ويصعب دائمًا ملاحظة ذلك التطور في الفترات الزمنية القصيرة⁽⁶⁹⁾. وترتبط هذه الإشكالية بسؤال محدد سبقت الإشارة إليه، ألا وهو: هل يمكن للمؤرخ النظر إلى الأفكار بوصفها ذات "حياة" خاصة بها تدفعها عبر "منطق" خاص خلال حقب التاريخ المختلفة بصرف النظر عما يقع في تلك الحقب من أحداث، أم أنه لا يمكن دراستها إلا من خلال النظر في سياقها؟⁽⁷⁰⁾ نتقل الآن إلى الإشكالية الثانية التي تلقي الضوء على هذا الخلاف من خلال الإشارة إلى وضع المفكر موضوع دراسة المؤرخ.

2. إشكالية العلاقة بين المفكر وبيئته الثقافية

ترتبط إشكالية التاريخ الفكري الثانية بالعلاقة بين المفكر وبيئته الثقافية، بحسب هذا السؤال: هل المفكر هو مجرد منتج من منتجات بيئته الثقافية، أم أنه أحد محدداتها؟ أم أن المفكر والبيئة يرتبطان في علاقة جدلية يؤثر كل منهما فيها في الآخر؟ وفي هذه الحالة الأخيرة، لمن يكون التأثير الأكبر، للبيئة على المفكر، أم العكس؟ والواقع أن أصحاب "المنزلة بين المنزلتين" في هذا الجدل هم الأقلية⁽⁷¹⁾، بينما تنقسم الأغلبية بين من يهتمون بـ "داخل" المؤلف النفسي والفكري Internalists (وأحياناً "التفكيريين" Intellectualists، إذا جازت الترجمة)، معتبرين إياه ذا استقلال فكري يستطيع من خلاله مفارقة الثقافة التي ينشأ فيها، وبين من يهتمون بالخارج الثقافي Externalists أو "السياقيين" Contextualists، أي أولئك الذين يصرون على أن السياق يفرض على المؤلف شيئاً لا يستطيع الفكاه الكامل منه⁽⁷²⁾. ارتبط أصحاب الاتجاه الأول بفكرة "تاريخ الأفكار" عند لفجوي - كما رأينا من قبل - وينصب تركيزهم على أفكار المؤلف وفلسفته وانفعالاته ونفسيته، مؤكدين أن اعتباره "مُنتجاً" لا يعبر إلا عن نظرة سوقية تعجز عن تقدير الفكر أو الفن Philistinism، بل تزدرى الفكر والمفكرين، وتصرف انتباه المؤرخ عما هو مهم (أي أفكار المفكر)، إلى ما هو ذو أهمية ضئيلة. ثم يطرح هؤلاء المؤرخون هذه الأسئلة: لماذا تنتج البيئة الثقافية نفسها مفكرين مختلفين في أفكارهم إذا كانوا جميعهم من منتجات تلك البيئة بعينها؟ ولماذا تظهر الأفكار نفسها في بيئات ثقافية مختلفة؟ بل لماذا توجد بعض الأفكار في كل الحضارات البشرية تقريباً، بشكل أو بآخر؟

أما التاريخ الفكري بمفهومه المعاصر، فينتهي كثير من مؤرخيه إلى الاعتقاد الثاني، إذ ينصب تركيزهم على فهم داخل المؤلف بوصفه تفاعلاً مع الثقافة المحيطة به أو رد فعلٍ عليها. وقد يطرح هؤلاء المؤرخون بدورهم هذا السؤال: لماذا تنتج بيئات ثقافية معينة مفكرًا فاشيًا، على سبيل المثال، وليس ليبراليًا، بينما لا تنتج بيئة ثقافية أخرى إلا مفكرًا ليبراليًا؟ ويربط البعض جدل "الداخل والخارج" والعلاقة بينهما بمجموعة من المتقالات التي طرحها الفلاسفة منذ زمن اليونان، إذ فرّق أفلاطون بين الحقيقي (الأفكار) والزائف

69 ينظر، مرة أخرى، دراسة سكينر المشار إليها في الهامش رقم 63، إذ يشرح فيها سكينر هذه الإشكالية مع ضرب عدد كبير من النماذج لمؤرخين كبار وقعوا في شرك قراءة أفكار معينة بصورة لا يمكن لها أن تعكس فهم أصحاب تلك الأفكار لها في سياقهم التاريخي.

70 يعزو كوليني هذا الجدل، الذي ارتبط دائمًا بهجوم على التاريخ الفكري لتكريزه على الأفكار وإهماله سياقها الاجتماعي، إلى بعض أعمال التاريخ الفكري (لا سيما تلك التي تتناول تاريخ الفلسفة) التي ركزت بصورة مبالغ فيها على النصوص والأفكار من دون أي اعتداد بتفاعل تلك الأفكار مع سياقها. ازدهر هذا الاتجاه في ألمانيا، ما يعكس، بحسب كوليني، تأثير التراث الهيجلي الذي يعتبر الفلسفة والأفكار محركات التاريخ البشري، ينظر: Collini, "Intellectual History," pp. 1-2.

71 ينظر، على سبيل المثال: Krieger, p. 508، إذ يؤكد كريغر أن مدارس التاريخ الفكري المختلفة (أو بالأحرى التي حددها هو، ينظر الهامش 6) تشترك في الاعتقاد بأن الأفكار دورًا يمكن تمييزه من باقي الأنشطة المجتمعية (وهو يختلف هنا عن ممارسي التاريخ "الاجتماعي - الفكري")، وكذلك بالربط بين الأفكار والأنشطة المجتمعية الأخرى (على خلاف الممارسين لتاريخ الفلسفة). هذه النظرة قد تعبر عن رأي كريغر نفسه في موضوع التاريخ الفكري ومنهجه، ولكن ليس عن تصور المؤرخين الآخرين للأمر نفسه، كما نرى في هذه الدراسة.

72 Kelley, "Intellectual History in a Global Age," pp. 155-156.

وقد كانت لأفكار فوكو، بكل تأكيد، صلة بهذا الأمر، إذ إنه يقلل من دور المفكر من خلال التركيز على علاقات القوة في المجتمعات المختلفة التي يخضع لها الجميع، وإن بدرجات متفاوتة.

(المظاهر المادية)، لتفرّق الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى بدورها بين الروح والمادة، ثم يظهر التقابل نفسه في تمايزات أخرى عند فلاسفة عصر النهضة الأوروبية (مثل رينيه ديكارت)، وفلاسفة عصر التنوير (مثل إيمانويل كانط)⁽⁷³⁾.

3. إشكالية العلاقة بين التاريخ الفكري والتاريخ الثقافي

تنتهي هاتان الإشكاليتان إلى إشكالية التاريخ الفكري الثالثة التي تتعلق بالعلاقة الملتبسة بين التاريخ الفكري والتاريخ الثقافي كما سبق بيانه. وتنبع أهمية هذه الإشكالية من كونها تصبّ في عمق منهج المؤرخ في تناول التاريخ الفكري لفترة زمنية ما. فقد يركّز مؤرخ ساعٍ لفهم أفكار عصر ما أو جماعة بشرية معينة على أفكار كبار مثقفي ذلك العصر أو تلك الجماعة (من خلال التركيز على ما يطلق عليه "المؤلفات العظيمة" Great Books)، بينما يركّز مؤرخ آخر (يُعد نفسه أيضًا من المنتمين إلى التاريخ الفكري) على الثقافة التي ينتمي إليها أغلب أفراد ذلك العصر أو عناصر تلك الجماعة. في الحالة الأولى، يركّز المؤرخ على نصوص مؤلفات العصر الرئيسة، أو "تعبيرات الفكر المكتوبة"، لا سيما تلك التي تتسم بقدر من العمق والتأمل⁽⁷⁴⁾، ليصف مناخه الفكري من دون النظر إلى حضور تلك الأفكار وتأثيرها في عصرها وفي مجتمعهما. وفي الحالة الثانية، يركّز المؤرخ على عناصر الثقافة المختلفة، لمعرفة الأفكار التي كان لها حضور وتأثير في غالبية سكان العصر أو المجتمع وفهمهما. يعرّض الاعتقاد الأول التاريخ الفكري لهجوم المؤرخين المنتمين إلى التاريخ السياسي والاجتماعي والمهتمين بأشكال القوة المختلفة، بينما يهتم التاريخ الفكري بأمور لم يكن لها بالضرورة أهمية في الواقع، ولم تتجاوز قلة صغيرة من المثقفين⁽⁷⁵⁾. وفي الحالة الثانية، قد يجد المؤرخ نفسه غارقًا في رصد أفكار غير ذات قيمة، وربما لا تميز عصرًا ما من غيره أو مجتمعًا ما من آخر، أو أفكار لا يمكن أن يُعزى أي دور في التقدم الفكري والحضاري إليها.

أما وقد تناولنا نشأة التاريخ الفكري وتطوره في الغرب وما يرتبط به من إشكاليات، ننتقل الآن إلى استعراض وضعه في الدراسات التاريخية العربية الحديثة والمعاصرة.

رابعًا: التاريخ الفكري في الدراسات التاريخية العربية الحديثة والمعاصرة

يتناول هذا المحور بإيجاز وضع التاريخ الفكري في الدراسات التاريخية العربية الحديثة والمعاصرة التي تتناول تاريخ الإسلام الفكري تحديدًا. فعلى الرغم من أن مجال التاريخ الفكري ليس جديدًا تمامًا على تلك الدراسات، فإنه ما برح يسعى لتأكيد وضعه بوصفه مجالًا من مجالات الدراسات التاريخية المعتمدة، وذلك لمجموعة من العوامل. تشبه بعض تلك العوامل نظيرتها التي تسببت في أزمات التاريخ الفكري في الدراسات الغربية عنه، بينما ترتبط بعض العوامل الأخرى بغياب التنظير للتاريخ الفكري بوصفه فرعًا مستقلًا من فروع الدراسات التاريخية، أو بطبيعة المصادر الإسلامية، أو بطبيعة التاريخ الإسلامي نفسه.

1. ممارسو التاريخ الفكري في العالم العربي

ينتمي أغلب الممارسين لما يمكن أن يندرج تحت التاريخ الفكري في العالم العربي إلى تخصصات أكاديمية مختلفة، فيبحث الفيلسوف في تاريخ الأفكار الفلسفية، وعالم الاجتماع في تاريخ أفكار تخصصه، والاقتصادي في تاريخ الفكر الاقتصادي، وباحث القانون في تطور فكرة القانون وفي القوانين المختلفة. ويرتبط هذا الأمر بتجاهل مؤسسي التاريخ الفكري، إذ لا نجد أساتذة تاريخ متخصصين فيه، فضلًا

73 Kelley, "Intellectual History in a Global Age," pp. 161-164.

74 Collini, "Intellectual History," p. 1.

75 Ibid.

عن غيابه بوصفه تخصصًا فرعيًا في ظل السيطرة المطلقة للتاريخ السياسي على أقسام التاريخ في الجامعات العربية⁽⁷⁶⁾. كما أننا نجد عادة في أقسام التاريخ في الجامعات العربية مقررات تتناول حصرًا تاريخ التخصصات الأخرى المختلفة، مثل تاريخ علم الاقتصاد أو القانون مثلاً، بينما قد نجد هذه المقررات في أقسام الاقتصاد والقانون نفسها. يعني هذا أن من يبحث في تاريخ هذه التخصصات ليسوا بالضرورة "مؤرخين"⁽⁷⁷⁾، سواء عيننا بذلك تدريبهم على مناهج البحث والتفكير التاريخي في أقسام التاريخ الجامعية، أو تدريبهم عليها تدريجيًا ذاتيًا؛ فالمتخصص في الاقتصاد يدرس تاريخ الاقتصاد غالبًا بوصفه متخصصًا في الاقتصاد، وينطبق الأمر نفسه على المتخصص في القانون أو الفلسفة أو علم النفس أو حتى في الكيمياء وغيرها من علوم طبيعية. وقد يكون أدلّ مثال على ذلك هو أن أغلب من بحثوا في الفلسفة الإسلامية (بما في ذلك مباحث العقيدة والفرق الإسلامية) ليسوا مؤرخين، وإنما باحثون منتمون إلى أقسام الفلسفة، وربما متخصصون في الدراسات الإسلامية عمومًا، وليس التاريخ الإسلامي خصوصًا⁽⁷⁸⁾. وقد نضيف إلى كل ذلك أن الدراسات التاريخية العربية التي يمكن أن تندرج تحت التاريخ الفكري تبدو نتاج جهد فردي وليس منهجي، وهو جهد قد يكون له ارتباطات بتيارات فكرية معينة في العالم العربي، وليس جهدًا تاريخيًا محايدًا وموضوعيًا كما ينبغي أن يكون الحال. وقد كانت النتيجة الطبيعية والمتوقعة لكل ذلك هو غياب التنظير، إذ لا نجد أي دراسة، بحسب علمي، تتناول موضوع التاريخ الفكري ومنهجه وإشكالياته نظريًا، وإنما نجد ممارسات له من دون أي غطاء فلسفي. وينطبق هذا الأمر حتى على المؤلفات التي تتناول تاريخ التأريخ نفسه⁽⁷⁹⁾.

والواقع أنه في حالة تاريخ الإسلام الفكري تحديدًا - لا سيما في مرحلتيه التأسيسية الباكرة والوسيطة⁽⁸⁰⁾ - لا تقتصر إشكالية البحث فيه على ممارسيه فحسب، وإنما تمتد لتشمل مصادره نفسها، بل طبيعته هو نفسه، وهما الأمران اللذان نتناولهما تبعًا ببعض التفصيل.

76 ينظر في ذلك: يوسف بني ياسين، "الخطط الدراسية في أقسام التاريخ في الجامعات العربية (الأردن ودول مجلس التعاون لدول الخليج العربي): دراسة تحليلية"، *أسطور*، العدد 5 (كانون الثاني/يناير 2017)، ص 307.

77 وهو ما يؤكد آيت من جهة أن الوضع في الغرب أيضًا، إذ يصرح بأن أكثر أعمال التاريخ الفكري فائدة قام بها متخصصون في الفلسفة والأدب أو الفن، ولكن ليس المؤرخون المحترفون، ينظر: White, p. 616؛ وفي المعنى نفسه، ينظر أيضًا: Skinner, "On Intellectual History," p. 29.

78 على سبيل المثال، عُدّ كتاب الشيخ مصطفى عبد الرازق (1885-1947) *تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية* فاتحة الدراسات العربية الحديثة عن الفلسفة الإسلامية؛ وقد نشر أيضًا إلى كتاب محمد لطفي جمعة (1886-1953) *تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب* (الذي أعاد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات نشره عام 2014) بوصفه نموذجًا آخر لمصنف في تاريخ الفلسفة الإسلامية لم يكتبه مؤرخ. ومن الأجيال اللاحقة، يمكن الإشارة إلى أبو العلاء عفيفي (1897-1966)، وأبو الوفا التفتازاني (1930-1994)، وإبراهيم مذكور (1902-1996)، وعاطف العراقي، وفيصل بدير عون.

79 ينظر، على سبيل المثال: وجيه كوثراني، *تاريخ التأريخ: اتجاهات، مدارس، مناهج*، ط 2 (الدوحة/بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013)، إذ لا نجد فصلًا يتناول نشأة التاريخ الفكري وتطوره في القرن العشرين، وإنما إشارات عرضية إلى "التاريخ المفهومي" عند رضوان السيد (ص 311)، أو سعي طريف خالدي لتحديد "قبة" أو "مظلة" معرفية تميز كل مرحلة تاريخية (ص 300)؛ والواقع أن الانطباع الذي يصل المتابع للدراسات العربية التي تتناول تاريخ التاريخ هو أنها توقفت، في مجملها، وباستثناءات بسيطة لا تنفي القاعدة، وقد نذكر منها: خالد طحطح، *الكتابة التاريخية* (الدار البيضاء: دار توبقال، 2012)، لا سيما الفصل الثاني من بابه الثالث، عند مدرسة الحواريات الفرنسية في النصف الأول من القرن العشرين، وهو أمر قد يتعلق بالارتباط العام للمؤرخين العرب بأوروبا تحديدًا (بسبب ارتباطها التاريخي بعالم الإسلام وتوفر المصادر التاريخية بها)، وليس الولايات المتحدة؛ أما رضوان السيد نفسه، فقد كتب عما أطلق عليه "التاريخ الثقافي"، الذي يسير فيه - بوصفه منتميًا إلى "الجيل الرابع" من المؤرخين العرب - على خطى الجيل الثالث الذي اهتم بالتاريخ "الثقافي والرمزي والأسطوري والأيدولوجي" (بينما اهتم الجيلان الأولان بالتاريخ السياسي، ثم بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي)، ينظر: رضوان السيد، *الجماعة والمجتمع والدولة: سلطة الأيديولوجيا في المجال السياسي العربي الإسلامي*، ط 2 (بيروت: دار الكتاب العربي، 2007)، ص 11-12. إلا أنه يصعب اعتبار ما يقوم به السيد في صفحات قليلة هنا (ص 11-15) "تنظيرًا" للتاريخ الثقافي بقدر ما هو تأريخ له، سواء على المستوى الشخصي أو الإقليمي (العالم العربي) أو الموضوعي (التاريخ الإسلامي ومؤرخوه، عربيًا ومستشرقين). ولا يقلل هذا الأمر من قيمة اجتهادات السيد التاريخية القيمة بكل تأكيد، ولكنها تؤكد ما نزعمه هنا، أي إن ممارسات التاريخ الفكري في العالم العربي لم تتم على تنظير مفصل لها، ولم يقم بها مؤرخون محترفون؛ وفي كتابه عن المدارس التاريخية الحديثة، لا يفرد الهادي التيمومي التاريخ الفكري بالذكر، حتى حين يتحدث عن التيارات التاريخية الحديثة والمعاصرة (مثل تيار "الميكرو-تاريخ" الإيطالي والألماني، و"المنعطف اللغوي" الأميركي، والتاريخ الاجتماعي البريطاني، والتاريخ الكبير، والتاريخ المباشر)، وإن كان يتحدث عن "التاريخ الثقافي" في أقل من ستة سطور (ص 231). وبطبيعة الحال، لا يظهر لفجوي ولا كثر غيره من أعلام التاريخ الفكري في القرن العشرين ضمن "صناع" علم التاريخ في العالم العربي في الأزمنة الحديثة، ينظر: الهادي التيمومي، *المدارس التاريخية الحديثة* (بيروت: دار التوزيع للطباعة والنشر، 2013)؛ خالد طحطح، *البيوغرافيا والتاريخ* (الدار البيضاء: دار توبقال، 2014)، وحديثه عن "التاريخ الثقافي وسير المثقفين" ونبذته المختصرة عن ارتباط الاهتمام بسير المفكرين بتاريخ الأفكار (ص 96-97).

80 أي القرون الهجرية العشرة الأولى.

2. مصادر التاريخ الإسلامي ومدى فائدتها في كتابة تاريخ الإسلام الفكري

تمثل كثير من مصادر تاريخ الإسلام الفكري المحتملة صعوبة كبيرة على مستويات المحتوى واللغة والكم؛ ذلك أن المصنفات الإسلامية الباكرة، وأحياناً الوسيطة، تعطينا دائماً معلومات من دون سياق خارج عنها؛ فالأفكار بيئتها فكرية أساساً، والأحداث بيئتها سياسية بصفة خاصة. ونرى ذلك بوضوح في المصنفات التي تتناول الفرق الإسلامية، على سبيل المثال: فالمعلومات عن أفكار تلك الفرق وعقائدها نجدتها في مصنفات الفرق أو "الملل والنحل" المختلفة، مع بعض إشارات عرضية أحياناً إلى أنشطتها السياسية أحياناً، أما المعلومات عن أنشطة تلك الفرق السياسية، فنجدتها في مصنفات التاريخ خاصة، ربما مع إشارات عرضية وموجزة عن عقائدها. وقد يرجع هذا الأمر إلى طبيعة المصنفات الإسلامية نفسها، فهي إما مصنفات "تاريخ" بالمعنى التقليدي - إذ تركز على الأحداث التاريخية (والسياسية تحديداً) بصورة شبه حصرية - وإما مصنفات تتناول "الأفكار" بصورة حصرية، مع إشارات عرضية إلى العقائد والأحداث هنا وهناك. وقد أصبحت المصنفات الأولى مصادر المؤرخين المتخصصين في التاريخ الإسلامي، بينما اهتم بالمصادر الأخرى المهتمون بالفكر والمنتهمون في كثير من الأحيان إلى تخصصات أخرى غير التاريخ. كما أن النظر إلى بعض تلك المصنفات باعتبارها منتمة إلى مجال الدراسات الشرعية يخرجها من دائرة اهتمام المؤرخ "المحترف"، وإن استخدمها المؤرخون المنتهمون إلى الدراسات الشرعية في دراسات تقوم، في الأغلب، على مسلمة إيمانية.

وفي أحيان كثيرة، نتقنا المصادر التي يمكن أن تفيد في دراسة موضوعات بعينها. فلو كنا ممن يعتقدون بشمول التاريخ الفكري لكل الأفكار المنتشرة في المجتمع أو الفترة الزمنية موضوع دراسة ما، سنجد صعوبة كبيرة في دراسة الرق، مثلاً، في التاريخ الإسلامي من منظور التاريخ الفكري (أو ربما من أي منظور كان). وينطبق الأمر نفسه على الإيمان بالسحر والجن (وهي موضوعات تخص التاريخ الفكري في بعض جوانبها، وليس فقط التاريخ الاجتماعي والثقافي)؛ فالإشارات التي قد نجدتها في كتب التاريخ أو حتى في كتب الفقه عن تلك الأمور لا تسمح لنا بتكوين صورة ثابتة عنها. كما لا تفيدنا المصادر عموماً - على كثرة مصنفات التراجم الضخمة - في دراسة "داخل" المفكر، أي انفعالاته وعواطفه، إلا أن يكون المفكر نفسه هو مصدر تلك المعلومات. ويتحقق هذا مع الشعراء مثلاً وبعض من كتبوا "سيراً ذاتية" (مثل أبي حامد الغزالي في كتابه **المنقذ من الضلال**) أو أشاروا إلى بعض أمور شخصية أدت دوراً في التفكير والسلوك (مثلما فعل ابن حزم الأندلسي في إشارته إلى إصابته في الطحال وارتباط ذلك بعنف أسلوبه⁽⁸¹⁾). إلا أن بعض هذه المصادر تتسم بقدر كبير من الصعوبة لغير المتخصصين فيها. فالشعر العربي مثلاً يعد مصدراً مهماً وأساسياً من مصادر التاريخ الفكري للإسلام، إلا أن دراسته تقع حصرياً في أقسام اللغة العربية والأدب والعربي. أما مصنفات التصوف - وهي أيضاً أساسية لتاريخ الإسلام الفكري - فهي، علاوة على صعوبتها، لا تحظى بالعناية الكافية في تحقيقها ونشرها لأسباب متعددة⁽⁸²⁾.

وعلى الرغم من كل ذلك، فقد تكون مصنفات التراجم كنزاً فيما يخص السياق الفكري والشخصي والبيئي للأفراد والأشخاص⁽⁸³⁾. والواقع هو أن هذه المصنفات معروفة جيداً، ولكنها، كما أحسب، لم تزل التقدير اللائق بها خارج دراسات بعينها، لعل أشهرها دراسة

81 أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي، كتاب الأخلاق والسير، أو رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل، تحقيق إيفا رياض، راجعه وقدم له وعلق عليه عبد الحق التركماني، ط 8 (الرياض: دار ابن حزم، 2016)، ص 162-163.

82 وعن الحضور المتواضع جداً للتصوف الإسلامي، بل الفرق الإسلامية، في الأطروحات المرتبطة بعلوم الدين الإسلامي في جامعات الأزهر والقاهرة وعين شمس، ينظر الدراسة الرائعة والمفيدة: عبد الرحمن أحمد عبد الهادي فراج، "الخصائص البنائية للإنتاج الفكري في علوم الدين الإسلامي: دراسة في الأطروحات الجامعية"، عالم الكتاب، العدد 44 (تشرين الأول/أكتوبر 1994)، ص 31-41. وقد يتطلب أي جهد حقيقي للارتقاء بالتاريخ الفكري في الجامعات العربية جهداً مسحياناً مماثلاً يغطي أغلب الجامعات العربية للتعرف إلى اهتمامات الأجيال الجديدة من المؤرخين.

83 ينظر في ذلك: مليكة أبيض، "بالاستناد إلى تاريخ دمشق لابن عساکر: صورة كمية للنشاطين الفكري والتربوي في بلاد الشام في القرون الثلاثة الأولى للهجرة"، التراث العربي، مج 1، العدد 1 (أيار/مايو 1980)، ص 98. وهذه الدراسة رائعة في إظهار إمكانات مصنفات التراجم بوصفها مصدراً من مصادر التاريخ الفكري، وإن كانت تلك المصادر تعاني إشكالية مصنفات الفرق الإسلامية نفسها التي ذكرناها من قبل، أي كون معلوماتها جزئية "منسلخة عن العوامل التاريخية التي أحاطت بها"؛ ينظر: المرجع نفسه، أو ظهور بعض المعلومات فيها بصورة عرضية في سياقات قد لا تتوقع وجود تلك المعلومات فيها؛ ينظر المرجع نفسه، ص 100، 117.

الحديث النبوي لما لتلك المصنفات من اهتمام بمرتبته الأعلام المترجم لهم بوصفهم مُحدّثين بحسب قواعد الجرح والتعديل . هنا، قد تضع أهمية بعض المعلومات ذات القيمة التاريخية البالغة على الباحث " الشرعي " الذي إما أنه لا يهتم بها، وإما أنه يجدها مختلفة عن اعتقاداته ومسلماته الإيمانية. كما قد تضع دلالة هذه المعلومات على المؤرخ غير المدرب على التعامل مع هذا الصنف من المصادر، فلا يستطيع فهم كل ما فيها إما لصعوبة لغتها وإما لارتباطها ببيئة فكرية لم يتعمق فيها بالقدر الكافي. والواقع أننا في دراسة تاريخ الإسلام الفكري، لا يمكننا الاعتماد على نوع واحد من المصادر، إذ قد نجد في مصنفات أصول الفقه، على سبيل المثال، إجابات عن أسئلة قد تثيرها لدينا مصنفات التاريخ أو التراجم وغيرها.

3. التاريخ الإسلامي بوصفه موضوعاً للتاريخ الفكري

ترتبط الصعوبات الأخرى، بالتاريخ الإسلامي نفسه، إذ قد يمنع الثراء الفكري مؤرخ الأفكار من تحديد أنماط الفكر في عصر إسلامي معين، لا سيما في مراحل التطور التي شهدت صراع أفكار مختلفة تنتمي إلى بيئات فكرية وثقافية متنوعة. وينطبق هذا الأمر بوضوح على تاريخ القرون الهجرية الثلاثة الأولى، إذ أدى اتساع الدولة الإسلامية الجغرافي وتنوعها العرقي والثقافي إلى وجود أنماط تفكير وممارسات متعددة تتسم بقدر ما من التساوي في الوزن والتأثير، وذلك على خلاف القرون الإسلامية الوسيطة والمتأخرة التي يصبح تحديد الفكر المهيمن فيها (في منطقة جغرافية محددة، على أقل تقدير) أقل صعوبة. وقد كان التعدد اللغوي أحد مظاهر ذلك التنوع، إلا أن الدراسات التاريخية العربية، التي يمكن تصنيفها ضمن التاريخ الفكري، والتي تستخدم مصادر غير عربية (بلغات مثل اللغة الفارسية ولاحقاً اللغة التركية) هي قليلة بوجه عام، وذلك على الرغم من اهتمام كليات الآداب (حيث توجد أقسام التاريخ وبرامجه غالباً) في بعض الجامعات العربية بتدريس اللغات " الشرقية " (84).

لا نستطيع، والوضع كذلك، أن نتحدث عن " أزمة " يمرّ بها التاريخ الفكري في الدراسات التاريخية العربية، إذ إن هذا النوع من الدراسات التاريخية لم يستقر وضعه بوصفه فرعاً مسلماً به في المقام الأول. ولكي يتم ذلك الأمر، يجب أن تكون هناك خطوات ملموسة تقوم بها أقسام التاريخ في الجامعات العربية، منها تخريج جيل من الطلاب الواعين بأبعاد التاريخ الفكري النظرية والمدرين على التعامل مع إشكالاته العامة وتلك الخاصة بالتاريخ الإسلامي بكل ما يتطلبه ذلك من معرفة متنوعة وخبرة مرنة. كما يفترض ذلك أيضاً تقبّل جماعة المؤرخين العرب لفكرة اهتمام المؤرخ بموضوعات وقضايا تختلف عن الاهتمامات التقليدية، مثل تاريخ التشريع أو تاريخ الفلسفة أو تاريخ العلم، وخلافه. ويتطلب هذا الأمر إنهاء الانفصال الحالي بين دراسة التاريخ الاحترافية (في مقابل الدراسة " الإيمانية ") وفروع الدراسات الإسلامية المختلفة، بل تقبّل فكرة قيام المؤرخ المحترف بالتعامل مع المصادر الإسلامية الشرعية، بل اللغوية والأدبية، باعتبارها جزءاً من مصادره. كما أن فتح المجال لطلاب التاريخ بحضور مقررات دراسية في أقسام، وربما كليات أخرى، بات مطلباً أساسياً الآن، إذ إنه يمكن المؤرخ الناشئ من امتلاك أدوات البحث التاريخي في موضوعات معينة. كما يجب أن تتوفر لهؤلاء الطلاب ولأساتذتهم دوريات متخصصة في التاريخ الفكري، أو أن تفسح الدوريات التاريخية الموجودة المجال أمام الدراسات التي تنتمي إلى مجال التاريخ الفكري وتستخدم مصادر غير مألوفة في الدراسات التاريخية.

84 لا تُعد هذه الصعوبات المرتبطة بالتاريخ الإسلامي ومصادره نقيصة فيه، فالوضع في الغرب قبل " عصر النهضة " لم يكن أفضل حالاً، إذ تنتمي أغلب دراسات تلك الفترة إلى الرؤية الدينية المسيحية للتاريخ والبشر، وهي تقابل في ذلك التراث الإسلامي الشرعي (بكل ما يشتمل عليه من مصنفات أصول وفقه وتفسير وحديث وخلافه)، وإن كانت لا تضارعه في ثرائه وتنوعه. أما مع عصر النهضة الأوروبية، فنجد كمّاً ضخماً من المصادر المتنوعة التي تصلح مادة خصبة لدراسة التاريخ الفكري. ولا غرو أن أغلب أدبيات التاريخ الأوروبي الفكري المعاصرة تتناول تاريخ أوروبا بدءاً من عصر النهضة، بل تخصص بعض الدوريات أحياناً في قرن بعينه من قرون عصر النهضة أو التنوير أو ما بعدهما.

خاتمة

غطى هذا البحث، بما توفر له من مساحة، أهم الأفكار المرتبطة بالتاريخ الفكري نشأةً وتطورًا وموضوعًا ومنهجًا، وإن لم يستوعبها جميعها. ويأمل أن يكون هذا البحث فاتحة اهتمام نظري عام بالتاريخ الفكري، يليه اهتمام بتحديد إمكانياته في دراسة تاريخ الإسلام الفكري (أو أي تاريخ آخر قد يهتم المؤرخ العربي) لسد فجوة حقيقية في الدراسات التاريخية الفكرية التي يقوم عليها مؤرخون محترفون. ورأينا في هذا البحث أن التاريخ الفكري بمفهومه الحديث، أو بالأحرى مفاهيمه الحديثة، كان وليد تطورات سياسية وثقافية متنوعة في الولايات المتحدة وأوروبا حددت له مجموعة من الإشكاليات الموضوعية والمنهجية. وعلى الرغم من أن هذا التنوع، كما أشرنا، عُد سببًا للقدح في التاريخ الفكري والحط منه، بل عدم الاعتراف به، فإنه قد يمثل فرصة لهذا الفن تمكّنه من تجنب مصير أغراض تاريخية أخرى انكفأت على نفسها فتعرّضت، هي الأخرى، لأزمات مثل تلك التي مرّ بها التاريخ الفكري في تاريخه القصير. وبالنسبة إلينا، مؤرخي العالم العربي، فإن تنوع أسئلة التاريخ الفكري الموضوعية والمنهجية يفتح أبوابًا لاستجلاء جوانب من تاريخنا الفكري، قد لا تساعد الأطر النظرية الموجودة على استكشافها، وهذه هي الفائدة الأساسية لمثل هذا النوع من الدراسات التي تسعى لرصد فلسفات التفكير التاريخي ونظرياته. فالتأصيل النظري يمكن المشتغلين بفن معين من التواصل معًا والبناء على ما تم إنجازه على نحو سلس. إلا أن ارتباط أسئلة التاريخ الفكري الموضوعية والمنهجية بتطورات فكرية معينة يعني أن دراسة التاريخ الإسلامي، على سبيل المثال، في ضوء هذه الأسئلة، قد تضيف إليها بقدر إضافة هذه الأسئلة إلى التاريخ الإسلامي نفسه. نحن نبدأ من الأسئلة، في الوقت الذي تطور فيها، أو نطور أسئلتنا الخاصة، بحيث نصير نحن أنفسنا مساهمين في تطور الفكر التاريخي النظري.



المراجع

العربية

- أبيض، مليكة. "بالاستناد إلى تاريخ دمشق لابن عساكر: صورة كمية للنشطين الفكري والتربوي في بلاد الشام في القرون الثلاثة الأولى للهجرة". **التراث العربي**. مج 1، العدد 1 (أيار/ مايو 1980).
- بشارة، عزمي. **الدين والعلمانية في سياق تاريخي، الجزء الثاني، المجلد الثاني: العلمانية ونظريات العلمنة: العلمانية ونظريات العلمنة**. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2015.
- بني ياسين، يوسف. "الخطط الدراسية في أقسام التاريخ في الجامعات العربية (الأردن ودول مجلس التعاون لدول الخليج العربي): دراسة تحليلية". **أسطور**. العدد 5 (كانون الثاني/ يناير 2017).
- التيمومي، الهادي. **المدارس التاريخية الحديثة**. بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر، 2013.
- ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد. **كتاب الأخلاق والسير، أو رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل**. تحقيق إيفا رياض. راجعه وقدم له وعلق عليه عبد الحق التركماني. ط 8. الرياض: دار ابن حزم، 2016.
- السيد، رضوان. **الجماعة والمجتمع والدولة: سلطة الأيديولوجيا في المجال السياسي العربي الإسلامي**. ط 2. بيروت: دار الكتاب العربي، 2007.
- طحطح، خالد. **الكتابة التاريخية**. الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 2012.
- _____. **البيوغرافيا والتاريخ**. الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 2014.
- _____. **عودة الحدث التاريخي**. الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 2014.
- فراج، عبد الرحمن أحمد عبد الهادي. "الخصائص البنائية للإنتاج الفكري في علوم الدين الإسلامي: دراسة في الأطروحات الجامعية". **عالم الكتاب**. العدد 44 (تشرين الأول/ أكتوبر 1994).
- **الكتابة التاريخية: التاريخ والعلوم الاجتماعية - التاريخ والذاكرة - تاريخ العقلية**. ترجمة وتقديم محمد حبيدة. الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2015.
- كوثراني، وجيه. **تاريخ التأريخ: اتجاهات، مناهج، مدارس**. ط 2، الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013.
- ليسير، فتحي. **تاريخ الزمن الراهن: عندما يطرق المؤرخ باب الحاضر**. تونس: دار محمد علي للنشر، 2012.

الأجنبية

- Bavaj, Riccardo. "Intellectual History." Version: 1.0. *Docupedia-Zeitgeschichte*. 13/9/2010. at: <https://bit.ly/2YGb8YO>
- Baumer, Franklin L. "Intellectual History and its Problems." *The Journal of Modern History*. vol. 21, no. 3 (September 1949).
- Collini, Stefan. "What is Intellectual History." *History Today*. vol. 85, no. 10 (October 1985).

- _____."Intellectual History."The Institute of History Research. *Making History* (2008). at: <https://bit.ly/3dkJWCX>
- Darnton, Robert. "Discourse and Diffusion." *Contributions to the History of Concepts*. vol. 1, no. 1 (March 2005).
- De Paula Couto, Cristiano Pinheiro. "Interview with Dominick LaCapra." *Intellectual History Review*. vol. 24, no. 2 (2014).
- Delacroix, Christian et al. *Hisotiorgraphies: Concepts et débats*. Paris: Gallimard, 2010.
- Diggins, John Patrick. "Arthur O. Lovejoy and the Challenge of Intellectual History." *Journal of the History of Ideas*. vol. 67, no. 1 (January 2006).
- Gilbert, Felix. "Intellectual History: Its Aims and Methods." *Daedalus*. vol. 100, no. 1 (Winter 1971).
- Gordon, Peter E. "What is Intellectual History? A Frankly Partisan Introduction to a Frequently Misunderstood Field." The Harvard Colloquium for Intellectual History (Summer 2013).
- Greene, John C. "Objectives and Methods in Intellectual History." *The Mississippi Valley Historical Review*. vol. 44, no. 1 (June 1957).
- Higham, John. "Intellectual History and its Neighbors." *Journal of the History of Ideas*. vol. 15, no. 3 (June 1954).
- Izenbert, Gerald. "Psychohistory and Intellectual History." *History and Theory*. vol. 14, no. 2 (May 1975).
- Jacoby, Russel. "A New Intellectual History?" *The American Historical Review*. vol. 97, no. 2 (April 1992).
- Kelley, Donald R. "Horizons of Intellectual History: Retrospect, Circumspect, Prospect." *Journal of the History of Ideas*. vol. 48, no. 1 (January-March 1987).
- _____."Intellectual History in a Global Age." *Journal of the History of Ideas*. vol. 66, no. 2 (April 2005).
- Kohut, Thomas A. "Psychohistory as History." *The American History Review*. vol. 91, no. 2 (April 1986).
- Krieger, Leonard. "The Autonomy of Intellectual History." *Journal of the History of Ideas*. vol. 34, no. 4 (October-December 1973).
- LaCapra, Dominick. *Rethinking Intellectual History: Texts, Contexts, Language*. Ithaca/ London: Cornell University Press, 1983.
- _____."Intellectual History and Its Ways." *The American Historical Review*. vol. 97, no. 2 (April 1992).
- LaCapra, Dominick & Steven L. Caplan (eds.). *Modern European Intellectual History: Reappraisals and New Perspectives*. Ithaca/ London: Cornell University Press, 1982.
- Levine, Joseph M. "Intellectual History as History." *Journal of the History of Ideas*. vol. 66, no. 2 (April 2005).
- McMahon, Darrin M. & Samuel Moyn (eds.). *Rethinking Modern European Intellectual History*. Oxford: Oxford University Press, 2014.
- Marchand, Suzanne. "Problems and Prospects for Intellectual History." *New German Critique*. no. 65 (Spring-Summer 1995).
- Miller, Eric. "Intellectual History after the Earthquakes: A Study in Discourse." *The History Teacher*. vol. 30, no. 3 (May 1997).

- Müller, Jan-Werner. "European Intellectual History as Contemporary History." *Journal of Contemporary History*. vol. 46, no. 3 (July 2011).
- Randall, John Herman. "A Symposium in Honor of Arthur O. Lovejoy: Arthur O. Lovejoy and the History of Ideas." *Philosophy and Phenomenological Research*. vol. 23, no. 4 (June 1963).
- Skinner, Quentin. "Meaning and Understanding in the History of Ideas." *History and Theory*. vol. 8, no. 1 (1969).
- _____. "On Intellectual History and the History of Books." *Contributions to the History of Concepts*. vol. 1, no. 1 (March 2005).
- Surkis, Judith. "When was the Linguistic Turn? A Genealogy." *The American Historical Review*. vol. 117, no. 3 (June 2012).
- Toews, John E. "Intellectual History after the Linguistic Turn." *The American Historical Review*. vol. 92, no. 4 (1987).
- White, Hayden V. "The Tasks of Intellectual History." *The Monist*. vol. 53, no. 4 (October 1969).

مراجع إضافية

- أبو شوك، أحمد إبراهيم. "المنهج التكاملي لدراسة التاريخ: الرؤى والأطروحات". *المجلة العربية للعلوم الإنسانية (الكويت)*. مج 35، العدد 138 (ربيع 2017).
- الخطيب، نشأت. "الجبرتي والصراع الفكري في عصره". *الفكر العربي*. مج 1، العدد 3 (أيلول / سبتمبر 1978).
- السحيباني، حمد بن صالح بن محمد. "الاتجاه الفكري لدعوة ابن تومرت: دراسة تاريخية". *مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية*. العدد 6 (تموز / يوليو 1992).
- مسعود، محمود. "تاريخ الوعي في العالم الإسلامي". *مجلة الوعي الإسلامي*. العدد 532 (كانون الأول / ديسمبر 2009).